

يتيمة الدهر

الثعالبي



يتيمة الدهر
الثعالبي



الثعالبي

PJ7653 .T43 2014
ثعالبي، عبد الملك بن محمد، 961 أو 2-1037 أو 8.
يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر / أبومنصور الثعالي؛ إعداد: خليل الشيخ.- ط. 1.-
أبوظبي: هيئة
أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2014.
ص. ؛ سم.-(سلسلة من عيون النثر العربي القديم)
تدمك: 8 - 361 - 17 - 9948 - 978
1. الشعر العربي -- العصر العباسي الثالث -- مختارات. أ. شيخ، خليل.
ب.العنوان. ج.السلسلة.

إعداد:
د. خليل الشيخ

خطوط:
الفنان التشكيلي الخطاط محمد
مندي





الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380
publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

المقدمة

يُعدُّ أبو منصور عبد الملِك بن مُحمَّد بن إسماعيل الثَّعالبيّ (429 هجرية) واحدًا من كبار المصنّفين والكتّاب في الثقافة العربيّة، لهذا لُقب بجاحظ نيسابور نظرًا لكثرة مؤلفاته وتنوع اهتماماته. وكتابه "يتيمة الدَّهر في محاسن أهل العصر "مَثّل على سِعة اطّلاعه ومنظوره النَّقدي الذي كان يصدر عنه.

ذكر الثعالبي في مقدمة كتابه أنّه قسّم كتابه إلى أربعة أقسام، فتناول في القسم الأول محاسن شعراء آل حمدان، وتوقّف في القسم الثاني عند محاسن أشعار أهل العراق، وإنشاء الدولة الديلمية، أمّا في القسم الثالث فقد توقَّف عند محاسن أهل الجبال وفارس وجرجان وطبرستان وأصفهان، ليختتم الجزء الرابع من كتابه بالحديث عن محاسن أشعار أهل خراسان وما وراء النهر.

يُعدُّ كتاب "يتيمة الدهر "أولّ كتاب يُبنى على تقسيم الأقاليم فيما يخص تراجم الشعراء ومختاراتهم، كما يُعدّ مصدرًا من مصادر شعراء القرن الرابع الهجري. فالكتاب يتوقّف عند الشعراء المعاصرين للثعالبي، ويسعى لانتخاب مختاراتٍ شعريةٍ خاصةٍ بهم. وقد أشار الثعالبي إلى ذلك في مقدمة كتابه، فقال: «وقد سبق مؤلّفو الكتب إلى ترتيب المتقدّمين من الشعراء والمتأخرين، وذِكر طبقاتهم ودرجاتهم، وتدوين كلماتهم، والانتخاب من قصائدهم ومقطوعاتهم، فكم من كتابٍ فاخِر عملوه، وعِقْدٍ باهرٍ نظموه. وبقيت محاسن أهل العصر التي معها رواء الحَداثة، ولذّة الجِّدة، وحلاوة قرب العهد، وازدياد الجودة على كثرة النّقد؛ غيرَ محصورةٍ بكتابٍ، ولا مجموعةٍ في مصنَّفٍ يقيّد شواردها، ويخلّد فوائدها". كما أشار الثعالبي أنّه قام بتصنيف كتبه مرتين، مرة عام 384 هجرية، وقد تمّ ذلك على عجلٍ، ومرة ثانية وصف جهده فيها، فقال: "غَيَّرتُ ترتيبها، وجدَّدت تبويبها، وأعدّت ترصيفها، وأحكمت تأليفها».

وقد شرح الثعالبي منهجه في تأليف كتاب اليتيمة، فقال: «والشرط في هذه الأخرى إيراد لبّ اللبّ، وحبة القلب، وناظر العين، ونكتة الكلمة، وواسطة العقد، ونقش الفصّ، مع كلام في الإشارة إلى النظائر، والأحاسن والسرقات، وأَخْذ في طريق الاختصار، ونُبذ من أخبار المذكورين، وغرر من فصوص فصول المترسّلين يميل إلى جانب الاقتصار، فإنْ وقع في خلال ما أكتبه البيت والبيتان ممّا ليس من أبيات القصائد، ووسائط القلائد؛ فلأنَّ الكلام معقودٌ به والمعنى لا يتمّ دونه، ولأنّ ما يتقدّمه أو يليه مفتقرٌ إليه، أو لأنّه شعرُ مَلِكٍ أو أمير أو وزيرٍ أو رئيسٍ خطيرٍ أو إمامٍ من أهل الأدب والعلم كبير، وإنَّما يُنفَق مثل ذلك بالانتساب إلى قائله لا بكثرة طائله:

وخير الشِّعر أكرمه رجالًا

وشرّ الشِّعر ما قال العبيدُ

وإنْ أخّرت مُتقدِّما فعذري فيه أنَّ العرب قد تبدأ بذكر الشيء والمُقدّم غيره، كما قال الله تعالى: (هو الّذي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُم كَافِرٌ وَمِنْكُم مُؤْمِنٌ)».

لقد كان الثعالبي جامعًا لشِعر تلك الأقاليم، مترجمًا لشعرائها، وقد كانت تراجمه متفاوتةً في الطّول والأهميّة، كما كانت مختاراته تتفاوت في الجودة. وقد لاحظ دارسو الكتاب أنّ الثعالبي أكثرَ من شِعر الغزل والمجون. وقد كان الثعالبي يفضّل شِعر الشام ويعلِّل ذلك بقوله: «لم يزل شُعراء عرب الشام وما يقاربها أَشْعَرَ من شُعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام. والسبب في تَبْريز القوم قديمًا وحديثًا على مَن سواهم في الشِّعر قُربهم من خُطط العرب، ولا سيَّما أهل الحجاز، وبُعْدهم عن بلاد العَجم، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسِنة أهل العراق لمجاورة الفرس والنَّبط، ومداخلتهم إياهم، ولمّا جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة، ورزقوا ملوكاً وأمراء من آل حمدان وبني ورقاء، وهم بقيّة العرب، والمشغوفون بالأدب، والمشهورون بالمجد والكرم والجمع بين أدوات السَّيف والقلم وما فيهم إلّا أديب جواد يحبّ الشِّعر وينتقده، ويثيب على الجيّد منه فيجزل، فانبعثت قرائحهم في الإجادة، فقادوا محاسن الكلام بألين زمام، وأحسنوا وأبدعوا ما شاؤوا».

لهذا خصّ الثعالبي أبا الطيب المتنبي وهو في بلاط سيف الدولة بصفحاتٍ طويلةٍ، وذكر محاسن شعره، كما توقّف عند ما عدّه من هَنَات المتنبي.

لكنّ أهمية "يتيمة الدهر "تكمن في أنَّها فتحتْ بابًا واسعًا لهذا اللون من المختارات الذي يقوم على التقسيم الإقليمي للشعراء. فقد نسج على منوالها كلّ من:

(دمية القصر وعصرة أهل العصر) للباخرزي (467هـ)، و(الذّخيرة في محاسِن أهل الجزيرة) لابن بسّام الأندلسي (542هـ) و(زينةُ الدّهر في لطائف شعراء العصر) للحُظَيْري (568هـ) و(خريدة القصر وجريدة العصر) للعماد الأصفهاني (597هـ).

لقد كان الثعالبي واسع الاطلاع، أديبًا متذوِّقًا للقريض، مُلمًّا بالثقافة العربية ومرجعياتها، وقد أجاد ابن بسام في وصفه عندما قال عنه: «كان في وقته راعي تلعات العِلم، وجامع أشتات النثر والنَّظْم، رأس المؤلفين في زمانه، وإمام المصنّفين بحكم قرانه، سار ذكره سَير المَثَل، وضُربَت إليه آباط الإبل، وطلعتْ دواوينه في المشارق والمغارب طلوع النّجم في الغياهب. وتواليفه أشهر مواضع، وأبهر مطالع، وأكثر راوٍ لها وجامع، من أنْ يستوفيها حدٌّ أو وصفٌ، أو يوفيها حقوقَها نَظْم أو رَصْفٌ».

بلاط الحمدانيّين:
سيف الدَّولة:

كَانَ بَنو حمدَان ملوكًا وأمراء، أوجههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسَّماحة، وعقولهم للرَّجاحة، وسيف الدولة مَشْهُورٌ بسيادتهم، وواسطة قلادتهم، وَكَانَ غرَّة الزَّمَان، وعماد الْإِسْلَام، وَمن بِهِ سداد الثغور وسداد الْأُمُور[1]، وَكَانَت وقائعه فِي عصاة الْعَرَب تكفُّ بأسها وتنزع لباسها وتفلّ أنيابها، وتذل صعابها، وتكفي الرّعية سوء آدابها. وغزواته تدْرك من الرّوم الثار، وتحسم شرهم المثار، وتحسن فِي الْإِسْلَام الْآثَار. وحَضْرَتُه مقصَد الْوُفُود، ومطلَع الْجُود، وقبلة الْآمال، ومحطّ الرّحال، وموسم الأدباء، وحلبة الشُّعَرَاء، وَيُقَال: إنَّه لم يجْتَمع قطّ بِبَاب أحدٍ من الْمُلُوك -بعد الْخُلَفَاء- مَا اجْتمع بِبَابِهِ من شُيُوخ الشِّعْر، ونجوم الدَّهْر وَإِنَّمَا السُّلْطَان سوق يُجْلَبُ إِلَيْهَا مَا يَنفُق لَدَيْهَا. وَكَانَ أديبا شَاعِرًا محبًّا لجيِّد الشِّعْر شَدِيدَ الاهتزاز لَما يُمدح بِهِ.

وَكَانَ كلّ من عبد الله بن مُحَمَّد الْفَيَّاض الْكَاتِب، وَعَليّ بن مُحَمَّد الشمشاطي، قد اخْتَارا من مدائح الشُّعَرَاء لسيف الدولة عشرَة آلَاف بَيت، كَقَوْل أبي الطّيب المتنبي:

خليليَّ إِنِّي لَا أرى غيرَ شَاعِرٍ

فَلِمْ مِنْهُم الدَّعْوَى ومنّي القصائدُ

فَلَا تَعَجبا إِنّ السيوف كَثِيرَةٌ

وَلَكِنَّ سيف الدولة الْيَوْم وَاحِدُ

لَهُ من كريم الطَّبْع فِي الْحَرْب منتضٍ[2]

وَمن عَادَة الْإِحْسَان والصفح عَامِدُ

وَلما رَأَيْتُ النَّاس دون مَحَلّه

تيقَّنت أَنَّ الدَّهْر للنَّاس ناقدُ

كرم سيف الدولة على الشُّعراء

قَالَ عَليّ بن مُحَمَّد الْعلوِي: كنتُ وَاقِفًا فِي السّماطين[3] بَين يَدي سيف الدولة بحلب، وَالشعرَاء ينشدونه، فَتقدّم إِلَيْهِ أَعْرَابِيٌّ رثُّ الْهَيْئَة، فَاسْتَأْذن الْحُجّاب فِي الإِنشاد، فأذنوا لَهُ فَأَنْشد:

أَنْت عَليٌّ وَهَذِه حلبُ

قد نفذ الزَّاد وانْتهى الطُّلب

بِهَذِهِ تَفْخَر الْبِلَاد

وبالأمير تزهى على الورى الْعَرَبُ

وَعَبْدك الدَّهْر قد أضرّ بِنَا

إِلَيْك من جور عَبدك الْهَرَبُ

فَقَالَ سيف الدولة، "أَحْسَنت وَالله أَنْت!". وَأمر لَهُ بِمِئَتي دِينَار.

وَحكى ابْن لَبِيب غُلَام أبي الْفرج الببغاء أَنّ سيف الدولة كَانَ قد أَمر بِضَرْب دَنَانِير للصّلات فِي كل دِينَار مِنْهَا عشرَة مَثَاقِيل، وَعَلَيهِ اسْمه وَصورته، فَأمر يَوْمًا لأبي الْفرج مِنْهَا بِعشْرَة دَنَانِير، فَقَالَ ارتجالاً:

نَحن بجود الْأَمِير فِي حرمِ

نرتع بَين السُّعُود وَالنَّعمِ

أبدعُ من هَذِه الدَّنَانِير لمْ

يجرِ قَدِيماً فِي خاطر الْكَرم

فقد غَدَتْ باسْمِه وَصورته

فِي دَهْرنَا عوذة من الْعَدَم[4]

فزاده عشرَة أُخْرَى.

وَكَانَ أَبُو فراس يَوْمًا بَين يَدَيْهِ فِي نفرٍ من ندمائه، فَقَالَ لَهُم سيف الدولة: أَيُّكم يُجِيز قولي، وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا سَيِّدي (يَعْنِي أَبَا فراس):

لَكَ جسمي تعلُّه

فدمي لم تُحِلُّهْ[5]

لكَ من قلبِي الْمَكَا

ن فَلم لَا تَحِلُّهْ

فارتجل أَبُو فراس، وَقَالَ:

أَنا إِنْ كنت مَالِكًا

فليَ الْأَمر كُلُّهْ

فَاسْتَحْسَنَهُ وَأَعْطَاهُ ضَيْعَةً بمنبج تغلّ ألفي دِينَار.

واستنشد سيف الدولة يَوْمًا أَبَا الطّيب المتنبي قصيدته الَّتِي أَولهَا:

على قَدْرِ أهل الْعَزْم تَأتي العزائمُ

وَتَأْتِي على قَدْرِ الْكِرَام المكارمُ

وَكَانَ معجبًا بهَا كثير الاستعادة لَهَا، فَانْدفع أَبُو الطّيب المتنبي ينشدها، فَلَمَّا بلغ قَوْله فِيهَا:

وقفتَ وَمَا فِي الْمَوْت شكٌّ لواقفٍ

كَأَنَّكَ فِي جفن الردى وَهُوَ نَائِمُ

تمرُّ بك الْأَبْطَال كَلْمَى هزيمَةً

ووجْهكَ وضَّاح وثغركَ باسمُ

قَالَ: قد انتقدنا عَلَيْك هذَيْن الْبَيْتَيْنِ، كَمَا انتُقد على امْرِئ الْقَيْس بيتاه:

كَأَنِّي لم أركبْ جوادًا للذّة

وَلم أتبطّنْ كاعبًا ذَات خلخالِ[6]

وَلم أسبأ الزقَّ الرويّ وَلم أقلْ

لخيليَ كرّي كرَّة بعد إجفالِ[7]

وبيتاك لَا يلتئم شطراهما، كَمَا لَيْسَ يلتئم شطرا هذَيْن الْبَيْتَيْنِ، وَكَانَ يَنْبَغِي لامرئ الْقَيْس أَنْ يَقُول:

كَأَنِّيَ لم أركب جوادًا وَلم أقلْ

لخيليَ كرّي كرَّة بعد إجفالِ

وَلم أسبأ الزق الرويّ للذِّة

وَلم أتبطن كاعبا ذَات خلخالِ

وَلَك أَنْ تَقول:

وقفت وَمَا فِي الْمَوْت شكٌّ لواقفٍ

ووجهك وضاحٌ وثغرك باسمُ

تمرُّ بك الْأَبْطَال كَلْمَي هزيمَةً

كَأَنَّك فِي جفن الرَّدى وَهُوَ نَائِمُ

فَقَالَ أيّد الله مَوْلَانَا! إنْ صَحَّ أَنَّ الَّذِي استدرك على امْرِئ الْقَيْس هَذَا كَانَ أعلم بالشعر مِنْهُ، فقد أَخطَأ امْرُؤ الْقَيْس وأخطأتَ أنا، ومولانا يعلم أن الثَّوْب لَا يعرفهُ الْبَزَّازُ معرفة الحائك، لِأَنّ الْبَزَّاز يعرف جملته، والحائك يعرف جميلته وتفاريقه، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أخرجه من الغزلية إِلَى الثوبية.

وَإِنَّمَا قرن امْرُؤ الْقَيْس لَذَّة النِّسَاء بلذة الرُّكوب للصَّيْد! وَقرن السماحة فِي شِرَاء الْخمر للأضياف بالشجاعة فِي منازلة الأَعْدَاء. وَأَنا لمّا ذكرت الْمَوْت فِي أول الْبَيْت أتبعته بذكر الردى -وَهُوَ الْمَوْت- ليجانسه، وَلما كَانَ وَجه الجريح المنهزم لَا يَخْلُو من أَن يكون عبوسًا، وعينه من أَن تكون باكية

قلت: ووجهك وضاح وثغرك باسم؛ لأجمع بَين الأضداد فِي الْمَعْنى، وَإِنْ لم يَتَّسِع اللَّفْظ لجميعها. فأعجب سيف الدولة بقوله، وَوَصله بِخَمْسِينَ دِينَارًا من دَنَانِير الصّلات، وفيهَا خَمْسمِئَة دِينَار.

وَكَانَ أَبُو بكر وَأَبُو عُثْمَان الخالديّان من خَواص شعراء سيف الدولة، فَبعث إِلَيْهِمَا مرّة وصيفةً ووصيفًا، وَمَعَ كل وَاحِد مِنْهُمَا بدرةٌ[8] وأقمشةٌ من ثِيَاب مصر، فَقَالَ أَحدهمَا من قصيدة طَوِيلَة، وَهِي:

لم يَغْدُ شكرك فِي الْخَلَائق مُطلقًا

إِلَّا وَمَالك فِي النوال حبيسُ

هَذَا، وَلم تقنع بِذَاكَ وَهَذِه

حَتَّى بعثتَ المَال وَهُوَ نَفِيسُ

أَتَتِ الوصيفةُ وَهْي تحمل بدرةً

وأتى على ظهرِ الوصيف الْكيسُ[9]

وبررتنا مِمَّا أجادت حوكه

مصرٌ، وزادت حُسْنه تِنِّيس[10]

فغدا لنا من جودك الْمَأْكُول والـ

ـمشروب والمنكوح والملبوسُ

فَقَالَ لَهُ سيف الدولة: أَحْسَنت إِلَّا فِي لَفْظَة "المنكوح"، فَلَيْسَتْ مِمَّا يُخَاطب بهَا الْمُلُوك. وَهَذَا من عَجِيب نَقده.

وقائع سيف الدولة وغزواته

قَالَ ابن خالويه: لما كَانَت الشَّام بيد الإخشيد سَار إِلَيْهَا سيف الدولة فافتتحها، وَهزمَ عساكره عَن صفّين فَقَالَ لَهُ المتنبي:

يَا سيف دولة ذِي الْجلَال وَمن لَهُ

خير الخلائف والأنام سميُّ

أَو مَا ترى صفّين كَيفَ أتيتها

فانجاب[11] عَنْهَا الْعَسْكَر الغربيُّ

فَكَأَنَّهُ جَيش ابْن حَرْبٍ رعته

حَتَّى كَأَنَّك يَا عَليُّ عَليُّ

وَكَانَ ظهر رجلٌ فِي الغرب، يعرف بالمُبَرْقَع، يَدْعُو النَّاس إِلَى نَفسه، والتفّت عَلَيْهِ الْقَبَائِل، وافتتح مَدَائِنَ من أَطْرَاف الشَّام، وَأسَرَ أَبَا وَائِل، تغلب بن دَاوُد بن حمدَان، وَهُوَ خَليفَة سيف الدولة على حمص، وألزمه شِرَاء نَفسه بِعَدَدٍ من الْخَيل وَجُمْلَةٍ من المَال، فأسرع سيف الدولة من حلب يَغُذّ[12] السّير حَتَّى لحقه فِي الْيَوْم الثَّالِث بنواحي دمشق، فأوقع بِهِ، وَقَتله، وَوضع السَّيْف فِي أَصْحَابه، فَلم ينجُ إِلَّا من سبق فرسه، وَعَاد سيف الدولة إِلَى حلب وَمَعَهُ أَبُو وَائِل وَبَين يَدَيْهِ رَأس الْخَارِجِي على رمح، فَقَالَ أَبُو فراس:

وآب وَرَأس القرمطيّ أَمَامه

لَهُ جَسَدٌ من أكعب الرمْح ضامِرُ[13]

وَهَذَا من أحسن مَا قيل فِي الرَّأْس المصلوب على الرمْح.

وَكَانَ سيف الدولة اصْطنع بني كلاب، وأدناهم، وآمن سربهم، فقهروا الْعَرَب وعلتْ كلمتهم، إلى أنْ بدرتْ مِنْهُم جفوة أغضبته فَأسْرى إِلَيْهِم، وأوقع بهم، وَملك حرمهم وَأَمْوَالهمْ، ثمَّ صفح عَنْهُم وكرم، وَجمع الْحرم، ووكّل بِهنّ الخدم، وَأفضل عَلَيْهِنَّ، وَأحسن إِلَيْهِنَّ، فَقَالَ أَبُو الطّيب من قصيدة:

فعدن كَمَا أُخذن مكرّمات

عَلَيْهِنَّ القلائد والملابُ[14]

ترفّقْ أَيهَا الْمولى عَلَيْهِمْ

فَإِنّ الرِّفْق بالجاني عتابُ

وَعين المخطئين همُ، وَلَيْسوا

بِأوّل معشرٍ خطئوا فتابُوا

وَأَنت حياتهم غضِبت عَلَيْهِم

وهجر حياتهم لَهُمُ عِقَابُ

وَمَا جهلتْ أياديك الْبَوَادِي

وَلَكِنْ رُبمَا خَفِي الصَّوَابُ

وَكم ذَنْبٍ مولّده دلالٌ

وَكم بُعْدٍ مولِّده اقترابُ

وجرمٍ جَرّه سُفَهَاء قومٍ

وَحلَّ بِغَيْر جارمه الْعَذَابُ[15]

كَأَنَّمَا اقتبسه من قَول الله سُبْحَانَهُ (أتهلكنا بِمَا فعل السُّفَهَاء منا) [الأعراف:155]. وَنَحْو من هَذَا قَول زِيَاد بن أبيه فِي خطبَته البتراء "وَالله لآخذن المحسن بالمسيء".

وَيُقَال: إنّ سيف الدولة غزا الرّوم أَرْبَعِينَ غَزْوَة لَهُ وَعَلِيهِ، فَمِنْهَا أَنّه أغار على العديد من بلدات الروم ونَواحيها، فَقتل وأحرق وسبى، وانثنى قَافِلًا إِلَى درب بلدة موزار، فَوجدَ عَلَيْهِ قسطنطين بن

فردس الدمستق، فأوقع بِهِ، وَقتل صَنَادِيد رجَاله، وعقب إِلَى للدانه، وَقد تراجع مَن هرب مِنْهَا، فأعظم الْقَتْل وَأَكْثر الْغَنَائِم، وَقد عبر الْفُرَات إِلَى بلد الرّوم، وَلم يَفْعَله أحدٌ قبله، حَتَّى أغار على بطن هنزيط، فَلَمَّا رأى فردس بُعْدَ مغزاه، وخلوَّ بِلَاد الشَّام مِنْهُ؛ غزا نواحي إنطاكية، فَأَسْرى سيف الدولة يطوي المراحل لَا ينْتَظر مُتَأَخِّرًا، وَلَا يلوي على مُتَقَدم، حَتَّى عَارضه بمرعش، فأوقع بِهِ وهزمه، وَقتل رُؤُوس البطارقة، وَأسر قسطنطين بن الدمستق، وأصابت الدمستق ضَرْبَةٌ فِي وَجهه، وَأَكْثر الشُّعَرَاءُ فِي هَذِه الْوَقْعَة، فَقَالَ أَبُو الطّيب:

لكلِّ امْرِئٍ مِن دهره مَا تعوّدَا

وعادات سيف الدولة الطّعْن فِي العدا

وَأَنْ يكذب الإرجاف[16] عَنهُ بضدّه

ويمسي بِمَا تنوي أعاديه أسعدا

وَربّ مُرِيدٍ ضرَّه ضرُّ نَفسه

وهادٍ إِلَيْهِ الْجَيْش أهْدى وَمَا هدى

وَسَار سيف الدولة لبِنَاء الْحَدث -وَهِي قلعة عَظِيمَة الشَّأْن- فَاشْتَدَّ ذَلِك على ملك الرّوم، فَجمع عُظَمَاء أهل مَمْلَكَته، وجهّزهم بالصليب الأعْظَم وَعَلَيْهِم فردس الدمستق، ثائرًا بِابْنِهِ قسطنطين فِي عددٍ لَا يُحْصى، حَتَّى أحاطوا بعسكر سيف الدولة، والتهبت الْحَرْب، وَاشْتَدَّ الْخطب، وَسَاءَتْ ظنون الْمُسلمين، ثمَّ أنزل الله نَصره، فَحمل سيف الدولة يخرق الصُّفُوف طلبًا للدمستق، فولى هَارِبًا، وَأسر صهره وَابْنَ بنته، وَقُتِلَ خلقٌ كثيرٌ من الرّوم، وَأَكْثر الشُّعَرَاء فِي هَذِه الْوَقْعَة، فَقَالَ أَبُو الطّيب وَذكر الْحَدث:

بناها فأعلى والقَنَا تقرع القنا

وموج المنايا حولهَا متلاطمُ

وَذكر ولد الدمستق فَقَالَ:

وَقد فجعته بِابْنِهِ وَابْن صهرِهِ

وبالصِّهر حملاتُ الْأَمِيرِ الغواشمُ

أشعار سيف الدولة

قال سيف الدولة في وصف قوس قزح:

وسَاقٍ صبيحٍ للصبوح دَعوته

فَقَامَ وَفِي أجفانه سِنة الغمضِ[17]

يطوف بكاسات الْعقار كأنجمٍ

فَمن بَين منقضٍّ علينا ومنفضّ

وَقد نشرت أَيدي الْجنُوب[18] مطارفًا

على الجوّ دكنًا والحواشي على الأَرْض

يطرّزها قَوس الْغَمَام بأصفرٍ

على أَحْمَرٍ فِي أَخْضَرٍ تَحت مبيضّ

كأذيال خودٍ أقبلت فِي غلائلٍ[19]

مصبَّغة وَالْبَعْض أقصر من بعضِ

وَهَذَا من التشبيهات الملوكية الَّتِي لَا يكَاد يحضر مثلهَا السوقة، وَنَظِيره قَول ابْن المعتز فِي وصف الْهلَال:

فانظرْ إليهِ كزورقٍ مِن فضّة

قد أثقلتْهُ حمولةٌ مِن عنبرِ

وأنشدَ سيف الدولة لنَفسِهِ:

أقبّله على جزعٍ

كشرب الطَّائِر الْفَزع

رأى مَاءً فأطعمه

وَخَافَ عواقب الطَّمع

وصادف فرْصَةً فَدَنَا

وَلم يلتذّ بالجرع[20]

ويحكى أَنّه كَانَت لسيف الدولة جَارِيَةٌ من بَنَات مُلُوك الرّوم، لَا يرى الدُّنْيَا إِلَّا بهَا، ويشفق من الرّيح الهابّة عَلَيْهَا، فحسدتها سَائِر حظاياه على لطف محلّها مِنْهُ، وأزمعن إيقَاع مَكْرُوهٍ بهَا من سُمٍّ أَو غَيره، وَبلغ سيف الدولة ذَلِك فَأمر بنقلها إِلَى بعض الْحُصُون احْتِيَاطًا على روحها، وَقَالَ:

راقبتني الْعُيُون فِيك فَأَشْفَقـ

ـتُ وَلم أخلُ قطّ من إشفاقِ

وَرَأيْتُ العذول يحسدني فِيـ

ـكِ مُجِدًّا يَا أَنْفس الأعلاقِ[21]

فتمنَّيت أَنْ تَكُونِي بَعيدًا

وَالَّذِي بَيْننَا من الودِّ بَاقِ

ربَّ هجرٍ يكون من خوف هجرٍ

وفراقٍ يكون خوف فِرَاقِ

وأنشد غير وَاحِد لَهُ فِي أَخِيه نَاصِر الدّولة أبي مُحَمَّد عِنْد وَحْشَة جرت بَينهمَا:

رضيتُ لك الْعليا وَقد كنتَ أَهلهَا

وَقلت لَهُم بيني وَبَين أخي فرقُ

وَلم يَكُ بِي عَنْهَا نُكُولٌ وَإِنَّمَا

تجافيت عَن حَقي فتمّ لَك الْحقُّ

وَلَا بُدّ لي مِن أَنْ أكون مُصَلَّيا[22]

إِذا كنت أرْضى أَن يكون لَك السَّبقُ

وأُنشد لَهُ أَيْضاً فِي وصف نَار الكانون:

كَأَنَّمَا النَّار والرماد مَعًا

وضوءها فِي ظلامه يحجبْ

وَجَنةُ عذراء مَسَّها خجلٌ

فاستترتْ تَحت عنبرٍ أَشهبْ[23]

أبو فراس الحَمْدَاني

هُوَ ابْن عَم سيف الدولة وَابْن عَم نَاصِر الدولة. كَانَ فَرْدَ دهره، وشمسَ عصره، أدبًا وفضلًا، وكرمًا ونبلًا، ومجدًا وبلاغةً وبراعةً، وفروسيةً وشجاعةً، وشعره مَشْهُورٌ سَائِرٌ بَين الْحسن والجودة، والسهولة والجزالة، والعذوبة والفخامة، والحلاوة والمتانة، وَمَعَهُ رواء الطَّبْع، وسمة الظّرْف، وَعزة الْملك. وَلم تَجْتَمِع هَذِه الْخلال قبله إِلَّا فِي شعر عبد الله بن المعتز، وَأَبُو فراس يُعَدُّ أشعرَ مِنْهُ عِنْد أهل الصَّنْعَة ونَقَدَة الْكَلَام، وَكَانَ الصاحب يَقُول""بُدِئَ الشّعْر بِملك، وَخُتم بِمَلِك"يَعْنِي امْرأ الْقَيْس وَأبا فراس.

وَكَانَ المتنبي يشْهد لَهُ بالتقدم والتبريز، ويتحامى جَانِبه فَلَا ينبري لمباراته، وَلَا يجترئ على مجاراته، وَإِنَّمَا لم يمدحه، ومدح مَنْ دونه من آل حمدَان تهيبًا لَهُ وإجلالًا، لَا إغفالًا وإخلالًا. وَكَانَ سيف الدولة يعجب جدًّا بمحاسن أبي فراس، ويُميّزه بالإكرام عَن سَائِر قومه، ويصطنعه لنَفسِهِ، ويصطحبه فِي غَزَوَاته، ويستخلفه على أَعماله، وَأَبُو فراس ينثر الدّرّ الثمين فِي مكاتباته إِيَّاه، ويوفيه حق سؤدده، وَيجمع بَين أدبي السَّيْف والقلم فِي خدمته.

أخبار أبي فراس مَعَ سيف الدولة

كتب أَبُو فراس إِلَى سيف الدولة، وَقد شخص من حَضرته إِلَى منزله بمنبج كتابًا صَدره: "كتابي -أَطَالَ الله بَقَاء مَوْلَانَا!- من الْمنزل وَقد وردته وُرُود السَّالِم الغانم، مثقل الْبَطن وَالظّهْر، وَفْرًا وشكرًا". فَاسْتَحْسن سيف الدولة بلاغته، وَوصف براعته. وَبلغ أَبَا فراس ذَلِك فَكتب إِلَيْهِ:

هَل للفصاحة والسما

حة والعلا عنّي محيدُ

إِذْ أَنْتَ سَيِّدِيَ الَّذِي

ربيتني وَأبي سعيدُ

فِي كلِّ يَوْمٍ أستفيـ

ـدُ من الْعَلَاء وأستزيدُ

وَيزِيدُ فِيِّ إِذا رَأَيْـ

ـتُك فِي النّدى خلقٌ جَدِيدُ

وَكَانَ سيف الدولة قَلَّما ينشط لمجلس الْأنس؛ لاشتغاله عَنهُ بتدبير الجيوش، وملابسة الخطوب، وممارسة الحروب، فوافت حَضرته إِحْدَى المحسنات من قيان بَغْدَاد، فتاقت نفس أبي فراس إِلَى سماعهَا، وَلم يرَ أَنْ يبْدَأ باستدعائها قبل سيف الدولة، فَكتب إِلَيْهِ يحثّه على استحضارها، فَقَالَ:

محلّك الجوزاءُ أَو أرفعُ

وصدرك الدهناء[24] بل أوسعُ

وقلبك الرَّحْب الَّذِي لم يزلْ

للْجدّ والهزل بِهِ مَوضِعُ

رفَهْ بقرع الْعود سمعًا غَدا

قرع العوالي[25] جلّ مَا يسمعُ

فبلغت هَذِه الأبيات المهلبي الْوَزير فَأمر القيان والقوالين بحفظها وتلحينها، وَصَارَ لَا يشرب إِلَّا عَلَيْهَا.

وَكتب أَبُو فراس إِلَى سيف الدولة:

يَا أَيهَا الْملك الَّذِي

أضحتْ لَهَا جمل المناقبْ[26]

نتج الرّبيع محاسنًا

ألقحنها غرر السحائبْ[27]

راقتْ ورقّ نسيمها

فحكتْ لنا صور الحبائبْ

حضر الشَّرَاب فَلم يطبْ

شُرْب الشَّرَاب وَأَنت غَائِب

وَأهْدى النَّاس إِلَى سيف الدولة فِي بعض الأعياد وَأَكْثرُوا فَكتب إِلَيْهِ أَبُو فراس:

نَفسِي فداؤك قد بعثـ

ـت تعهّدي بيد الرَّسُولِ

أهديت نَفسِي، إِنَّمَا

يُهدى الْجَلِيل إِلَى الْجَلِيلِ

وَجعلت مَا ملكت يَدي

صلَة المبشّر بِالْقبُولِ

لما رَأَيْتُك فِي الْأَنَا

م بِلَا مِثَالٍ أَو عديلِ[28]

وَكتب إِلَيْهِ يعاتبه:

قد كنتَ عدَّتي الَّتِي أسطو بهَا

ويدي إِذا اشْتَدَّ الزَّمَان وساعدي

فرميتُ مِنْك بِغَيْر مَا أمّلته

والمرء يشرق بالزلال الْبَارِد[29]

فَصَبَرت كَالْوَلَدِ التقيّ لبرّه

أغضى على ألمٍ لضرب الْوَالِدِ

وعزم سيف الدولة على الْغَزْو، واستخلاف أبي فراس على الشَّام، فَكتب إِلَيْهِ قصيدة مِنْهَا:

لَا تشغلنّ بِأَمْرِ الشَّام تحرسه

إِنّ الشَّآم على مَن حلّه حرمُ

وَإِنّ للثغر سورًا مِن مهابته

صخوره من أعادي أَهله القممُ

لَا يحرمنِّي سيف الدّين صحبته

فَهِيَ الْحَيَاة الَّتِي تحيا بهَا النسم[30]

وَكَانَ لسيف الدولة غُلَامٌ يُقَال لَهُ نجا، قد اصطنعه، ونوّه باسمه، وقلّده طرسوس، وَأخذ يقرع بَاب الْعِصْيَان والكفران، وَزَاد تبسطه وَسُوء عشرته لرفقائه، فبطش بِهِ ثَلَاثَة نفر مِنْهُم وقتلوه. فشقّ ذَلِك على سيف الدولة، وَأمر بقتل فتكته، فَكتب إِلَيْهِ أَبُو فراس:

إِنْ لم تجاف عَن الذُّنُو

ب وَجدتهَا فِينَا كَثِيره[31]

لَكِنّ عادتك الجميـ

ـلة أَن تغضّ على بصيره[32]

فَخْرُ أبي فراس

قَالَ من قصيدة يذكر فِيهَا إِيقَاعه ببني كَعْب وَهُوَ على مُقَدَّمة سيف الدولة، وَكَانَ قد حسن بلاؤه فِي تِلْكَ الْوَقْعَة:

أَلَمْ ترنا أعزّ النَّاس جارًا

وأمنعهم وأمرعهم جنابا[33]

لنا الْجَبَل المطل على نزارٍ

حللَنَا النّجد مِنْهُ والهضابا

يفضّلنا الْأَنَام وَلَا نحاشي

ونُوصف بالجميل وَلَا نُحابى

وَقد علمتْ ربيعَة بل نزارٌ

بِأَنّا الرَّأْس وَالنَّاس الذنابى

وَلمّا أَنْ طغتْ سُفَهَاء كَعْبٍ

فتحنا بَيْننَا للحرب بَابا

منحناها الحرائب[34] غير أَنّا

إِذا جارتْ منحناها الحرابا

وَلمّا ثار سيف الدّين ثرنا

كَمَا هيَّجتْ آسادًا غضابا

أسنّته إِذا لَاقَى طعانًا

صوارمه إِذا لاقي ضرابا

دَعَانَا والأسنَّة مشرعاتٌ

فَكُنَّا عِنْد عودته الجوابا

صنائع فاق صانعها ففاقتْ

وغرسٌ طَابَ غارسه فطابا

وَكُنَّا كالسِّهام إِذا أَصَابَتْ

مراميها فراميها أصابا

هَذَا أحسن مَا قيل فِي مَعْنَاهُ، وَقد أَخذه أَبُو الْعَبَّاس الضَّبِّيّ، فَكتب فِي كتاب فتح تولاه للصاحب بأصبهان: "وهنأ الله مَوْلَانَا كَافِي الكفاة هَذِه المناجح الَّتِي هِيَ نتائج عَزَائِمه، وثمرات صرائمه، فَمَا يرى عَبده وصنيعته، وَسَائِر من يكنفه ظله وتريشه عنايته، نُفُوسهم إِذا وُفّقوا لمَذْهَب من مَذَاهِب الْخدمَة وهُدوا لأَدَاء حقّ من حُقُوق النِّعْمَة، إِلَّا سهامًا إِذا أَصَابَتْ، فراميها الْمُصِيب، وَمَا لَهَا فِي المحمدة نصيب".

وكَانَ سيف الدولة قد أبعد كلابًا وشرّدها، فقصدت أَبَا فراس وَهُوَ ببالس فِي خف من أَصْحَابه، وَعَلَيْهِم كثير بن عَوْسَجَة، فَهَزَمَهُمْ، ثمَّ طرحوا أنفسهم عَلَيْهِ، وقدمتْ وفودهم إِلَيْهِ، فَخرج وتوسّط فِي أمرهم مَعَ سيف الدولة، وَقَالَ فِي ذَلِك:

سَلِي عَنَّا سراة بني كلابٍ

ببالس عِنْد مشتجر العوالي[35]

لَقِينَاهُمْ بأسيافٍ قصارٍ

كفين مؤونة الأسل الطوَالِ[36]

فولّى بِابْن عَوْسَجَةٍ كثيرٌ

وساع الخطو فِي ضنك المجالِ

يرى البرغوث إِذْ نجّاه منّا

أجلّ عقيلةٍ وَأحبّ مَالِ

تَدور بِهِ إِمَاءُ بني قريطٍ

وتسأله النِّسَاء عَن الرِّجَالِ

يقلنَ لَهُ السَّلامَة خير غنمٍ

وَإِنّ الذلّ فِي ذَاك الْمقَالِ

وعادوا سَامِعين لنا فعدنا

إِلَى الْمَعْهُود من شرف الفعالِ

وَنحن مَتى رَضِينَا بعد سخطٍ

أسونا مَا جرحنا بالنوالِ[37]

وهو يقول:

إِذا مَا الْعِزّ أصبح فِي مَكَانٍ

سموتُ لَهُ، وَإِنْ بعد المزارُ

مقَامي حَيْثُ لَا أَهْوى قَلِيلٌ

ونومي عِنْد من أقلى غرارُ

أَبَتْ لي همتي وغرار سَيفي

وعزمي والمطيّة والقفارُ[38]

وَنَفسٌ لَا تجاورها الدّنايا

وَعرضٌ لَا يرفُّ عَلَيْهِ عَارُ

وَقومٌ مثل مَن صحبوا كرامٌ

وخيلٌ مثل من حملت خِيَارُ

وَكم بلدٍ شنّناهنَّ فِيهِ

ضحًى وَعلا منابره المُعارُ[39]

وَكم ملكٍ نَزَعْنَا الْملك عَنهُ

وجبَّارٍ بِهِ دَمه جُبارُ[40]

في الصداقة والأصدقاء

وَكتب إِلَى أَخِيه أبي الهيجاء:

حللتَ من الْمجد أَعلَى مَكَانِ

وبلَّغكَ الله أقْصَى الْأَمَانِي

فَإنَّك -لَا عَدِمَتْكَ الْعُلَا-

أَخٌ لَا كإِخوة هَذَا الزَّمَانِ

كسوتَ أُخوَّتنا بالصفاء

كَمَا كُسِيَتْ بالْكلَام الْمعَانِي

وَقَالَ لصديق لَهُ وَأَحَسن:

لم أؤاخذك بالجفاء لِأَنِّي

واثقٌ مِنْك بالوداد الصَّرِيحِ

فجميل الْعَدوّ غيرُ جميلٍ

وقبيحُ الصّديق غيرُ قَبِيحِ

وَكتب إِلَى أبي العشائر وَهُوَ أَسِير بِأَرْض الرّوم:

نفى النّوم عَن عَيْني خيالٌ مُسلِّم

تأوّب من أَسمَاءَ والركب نوَّمُ[41]

وخطبٌ من الْأَيَّام أنسانيَ الْهوى

وَأحلى بفيَّ الْمَوْتَ وَالْمَوْت علقمُ

وَوَالله مَا شبَّبْتُ إِلَّا علالةً

وَمن نَار غير الْحبّ قلبِي يضرَّمُ

فَمَن مبلغٍ عنّي الْحُسَيْن ألوكة[42]

تضمنها درُّ الْكَلَام المنظُّم

لذيذ الْكرَى حَتَّى أَرَاك محرُّم

ونار الأسى بَين الحشا تتضرُّم

وأترك أَن أبْكِي عَلَيْك تطيُّرًا

وقلبيَ يبكي والجوانح تلطمُ[43]

الشكّوى والعِتاب

يقول أبو فراس:

أَرَانِي وقومي فرَّقتنا مَذَاهِبُ

وَإِنْ جمعتنَا فِي الْأُصُول الْمنَاسبُ

فأقصاهمُ أَقْصَاهُمُ من مساءتي

وأقربهم مِمَّا كرهت الْأَقَارِبُ

غَرِيبٌ وَأَهلي حَيْثُ مَا كرَّ ناظري

وحيدٌ وحولي من رجالي عصائبُ[44]

نسيبك مَن ناسبتَ بالودِّ قلبهُ

وجارك من صافيته لَا المُصاقِبُ

وَأعظم أَعدَاء الرِّجَال ثقاتها

وأهون مَن عاديته مَن تحاربُ

وَمَا الذَّنب إِلَّا الْعَجز يركبه الْفَتى

وَمَا ذَنبه إِنْ حاربتْه المطالبُ

وَمن كَانَ غير السَّيْف كافلُ رزقه

فللَذلّ مِنْهُ -لَا محَالة- جَانبُ

الْغَزل والنسيب

وقَالَ أبو فراس:

تَبَسَّم إِذْ تَبَسَّم عَن أقاحٍ

وأسفرَ حِينَ أَسْفرَ عَن صباحِ

وأَتحفني براحٍ مِن رضابٍ

وَرَاحٍ مِن جنى خدٍّ وَرَاحِ[45]

فَمن لألاء غرّته صباحي

وَمن صهباء ريقته اصطباحي[46]

وَقَالَ:

أَيُّهَا الْغَازِي الَّذِي يَغْزُو

بِجَيْش الْحبّ جسمي

مَا يقوم الْأجر فِي غز

وك للروم بإِثمي

وَقَال:

وَإِذا يئستُ من الدنـ

ـوِّ رغبت فِي فرط البعادِ

أَرْجُو الشَّهَادَة فِي هَوَا

ك لِأَنَّ روحي فِي جِهَادِ

في الوصف والتّشبيه

جلسَ أبو فراس يَوْمًا فِي الْبُسْتَان البديع وَالْمَاء يتدرج فِي البرك، فَقَالَ فِي وَصفه، وكلّ واصفٍ فَإِنَّمَا يشبه الْمَوْصُوف بِمَا هُوَ من جنس صناعته، أَو بِمَا يكثر رُؤْيَته لَهُ:

أنظرُ إِلَى زهر الرّبيع

وَالْمَاء فِي برك البديع

وَإِذا الرِّيَاح جرتْ عَلَيْـ

ـهِ فِي الذّهاب وَفِي الرُّجُوع

نثرت على بيض الصفا

ئح بَيْننَا حلق الدروع

وَقَالَ فِي جَارِيَة مسبيّة:

وخريدةٍ كرمتْ على آبائها

زَمنًا، وَعند سبائها لم تكرمِ[47]

خطبت بِحَدّ السَّيْف حَتَّى زُوِّجت

كرهًا، وَكَانَ صَدَاقهَا للمقسمِ

راحت وصاحبها لعرسٍ حَاضرٌ

بِرِضا الْإِلَه وَأَهْلهَا فِي مأتمِ

الحِكَم

قَالَ أبو فراس:

الْمَرْء نصب مصائب لَا تَنْقَضِي

حَتَّى يوارى جِسْمه فِي رمسهِ[48]

فمؤجِّل يلقى الرّدى فِي أَهله

ومعجِّل يلقى الرّدى فِي نَفسهِ

وقَالَ:

أنْفِقْ من الصَّبْر الْجَمِيل فَإِنَّهُ

لم يخْش فقرًا منفقٌ من صبرهِ

والمرء لَيْسَ ببالغٍ فِي أرضه

كالصّقر لَيْسَ بصائدٍ فِي وَكرهِ

وَقَالَ:

خفِّض عَلَيْك وَلَا تكن قلق الحشا

مِمَّا يكون وعلَّه وعساهُ[49]

والدهر أقصر مُدَّة مِمَّا ترى

وعساك أَنْ تَكْفِي الَّذِي تخشاهُ

روميّات أبي فراس

لما أدْركْت أَبَا فراس حِرْفَة الْأَدَب، وأصابته عين الْكَمَال، أسرته الرّوم فِي بعض وقائعها وَهُوَ جريح، وَقد أَصَابَهُ سهمٌ بَقِي نصله فِي فَخذه، وأُسِر مثْخنًا بخرشنة، ثمَّ بقسطنطينية، وتطاولت مدَّته

بهَا لتعذر المفاداة، وَقد قيل: على كل نجح رَقِيب من الآفَات، وَقد كَانَت تصدر أشعاره فِي الأسر وَالْمَرَض واستزادة سيف الدولة، وفرط الحنين إِلَى أَهله وإخوانه وأحبابه، والتبرّم بِحَالهِ ومكانه، عَن صدرٍ حرجٍ، وقلبٍ شجٍ، تزداد رقةً ولطافةً، وتبكي سامعها، وَتعلق بِالْحِفْظِ لسلاستها، فَمِنْهَا قَوْله:

مَا للعبيد مَن الَّذِي

يقْضِي بِهِ الله امْتنَاعُ

ذدت الْأسود عَن الفرا

ئس ثمَّ تفرسني الضباعُ!

وَقَوله:

قد عذّب الْمَوْتُ بأفواهنا

وَالْمَوْتُ خيرٌ من مقَام الذَّلِيلْ

إِنَّا إِلَى الله لمَا نابنا

وَفِي سَبِيل الله خير السَّبِيلْ

وَلما شقَّتْ فَخذه عَن نصل السهْم الَّذِي أَصَابَهُ قَالَ:

فَلَا تصفنَّ الْحَرْب عِنْدِي، فَإِنَّهَا

طَعَاميَ مذْ بِعْت الصِّبَا وشرابي

وَقد عرفتْ وَقع المسامير مهجتي

وشقّق عَن زرق النصول إهابي

ولججت فِي حُلْو الزَّمَان ومرّه

وأنفقت من عمري بِغَيْر حِسَابِ

وَكتب إِلَى والدته وَقد ثقل من الْجراح الَّتِي بِهِ:

مصابي جليلٌ والعزاءُ جميلُ

وظنّي بِأَنّ الله سَوف يديلُ[50]

جراح تحاماها الأساة مَخَافَةً

وسقمان بادٍ مِنْهُمَا ودخيلُ

وَأسرٌ أقاسيه وليلٌ نجومه

أرى كلّ شَيْءٍ غَيْرهنَّ يَزُولُ

تطول بِي السَّاعَات وَهِي قَصِيرَة

وَفِي كل دهر لَا يَسُرك طولُ

تناسانيَ الْأَصْحَاب إِلَّا عِصَابَةً

ستلحق بِالْأُخْرَى غَدًا وتحولُ

وَإِنَّ الَّذِي يبْقى على الْعَهْد مِنْهُم

وَإِنْ كثرتْ دَعوَاهُم لقَلِيلُ

أقلّب طرفِي لَا أرى غير صَاحبٍ

يمِيل مَعَ النعماء حَيْثُ تميلُ

وصرنا نرى أَنّ المتارك محسنٌ

وَأَنَّ خَلِيلًا لَا يضرُّ وُصُول

ثمّ يضيف:

وَإِنَّ وَرَاء السّتْر أمًّا بكاؤها

عَليّ، وَإِنْ طَال الزَّمَان، طَوِيلُ

فيا أمّتا لَا تعدمي الصَّبْر، إِنَّه

إِلَى الْخَيْر والنجح الْقَرِيب رَسُول

وَكتب إِلَى والدته:

لَوْلَا الْعَجُوز بمنبجٍ

مَا خفتُ أَسبَاب المنيّه

ولكان لي عَمَّا سَأَلْـ

ـتُ من الفدى نفسٌ أَبِيّه

لَكِنْ أردْتُ مرادها

وَلَو انجذبتُ إِلَى الدنيّه

أمسَت بمنبجَ حرَّةٌ

بالحزن من بعدِي حريّه

فِيهَا التقى وَالدِّين مجـ

ـموعان فِي نفسٍ زكيّه

لَا زَالَ يطْرق منبجًا

فِي كلِّ غاديةٍ تحيّه

يَا أمّتا لَا تحزني

وثقي بِفضل الله فِيِّه

يَا أمّتا لَا تيأسي

لله ألطافٌ خفيّه

أوصيك بِالصبرِ الْجَمِيـ

ـل فَإِنَّهُ خير الوصيّه

وَقَالَ أبو فراس وَقد سمع حمامة تنوح بِقُرْبِهِ على شَجَرَة عالية:

أَقُول وَقد ناحتْ بقربي حمامةٌ

أيا جارتي هَل تشعرين بحالي

أيَا جارتا مَا أنصف الدَّهْر بَيْننَا

تعالي أقاسمك الهموم تعالي

تعاليْ تري روحا لديّ ضَعِيفَةً

تردّد فِي جسم يعذب بالي

أيضحك مأسورٌ وتبكي طليقةٌ

ويسكتُ محزونٌ وَينْدبُ سالي

لقد كنتُ أولى مِنْك بالدمع مقلةً

وَلَكِنَّ دمعي فِي الْحَوَادِث غالي

وكتب إلى سيف الدولة:

ولكنّني رَاضٍ على كلِّ حَالَةٍ

لنَعلم أيّ الخلتين سرابُ

وَمَا زلت أرْضى بِالْقَلِيلِ محبَّة

لَدَيْهِ، وَمَا دون الْكثير حجابُ

وأطلب إبْقَاءً على الودّ أرضه

وذكرى منًى فِي غَيرهَا وطلابُ

كَذَاك الوداد الْمَحْض لَا يرتجى لَهُ

ثَوَابٌ، وَلَا يخْشَى عَلَيْهِ عِقَابُ

وَكتب إلى سيف الدولة:

وهبتُ شَبَابِي والشباب مضنَّة

لأبلج من أَبنَاء عمِّيَ أروعا[51]

أَبيتُ معنًّى من مَخَافَة عَتبه

وَأصْبح مَحْزُونًا وأمسي مروّعا

فَلَمَّا مضى عصر الشبيبة كُلّه

وفارقني شرخ الشَّبَاب فودّعا[52]

تطلَّبت بَين العتب والهجر فُرْجَةً

فحاولتُ أمرًا لَا يرام ممنّعا

وصرتُ إِذا مَا رمتُ فِي الْخَيْر لَذَّةً

تتبّعتها بَين الهموم تتبّعا

وَكتب إِلَيْهِ أَبُو فراس: مفاداتي إنْ تَعَذرَتْ عَليْك فَأذن لي فِي مُكَاتبَة أهل خُرَاسَان ومراسلتهم، ليفادوني وينوبوا عَنْك فِي أَمْرِيَ، فَأَجَابَهُ سيف الدولة بِكَلَام حسن، وَقَالَ لَهُ: وَمن يعرفك بخراسان؟ فَكتب إِلَيْهِ أَبُو فراس:

أَسَيْفَ الْهدى وقريعَ الْعَرَبْ

إلامَ الْجفَاء؟ وفيم الْغَضَبْ؟

وَمَا بَال كُتْبك قد أَصبَحتْ

تنكّبني مَعَ هذي النّكبْ[53]

وَأَنت الْكَرِيم، وَأَنت الْحَلِيم

وَأنت العطوف، وَأَنت الحدبْ[54]

وَمَا زلتَ تسعفني بالجميل

وتنزلني بِالْمَكَانِ الخَصِبْ

وَمَا غضّ منّي هَذَا الإِسار

وَلَكِن خلصت خلوص الذَّهَبْ

فَفِيمَ يقرّعني بالخمو

ل مولًى بِهِ نلْتُ أَعلَى الرتبْ؟

وَكَانَ عتيدًا لديّ الْجَواب

وَلَكِنْ لهيبته لم أُجبْ

أتنكر أَنِّي شَكَوْت الزَّمَان

وَأَنِّي عتبتك فِيمَن عتبْ

فَلَا تنسبنّ إِلَيَّ الخمول

عَلَيْك أَقمتُ فَلم أغتربْ

وَإنّ خُرَاسَان إنْ أنْكرتْ

علايَ فقد عرفتها حلبْ

وَمن أَيْن ينكرني الأبعدون

أَمن نقص جدٍّ؟ أَمن نقص أَبْ؟

أَلَسْتُ وَإيَّاك من أسرةٍ

وبيني وَبَيْنك عرق النَّسبْ؟

وَنَفسٌ تكبَّرُ إِلَّا عَلَيْك

وترغب إلّاك عَمَّن رغبْ

فلو لم أكن بك ذا خبرةٍ

لقلت صديقك من لم يغبْ

وَبلغ أَبَا فراس أَن والدته قصدت حَضْرَة سيف الدولة من منبج تكَلّمه فِي المفاداة، وتتضرع إِلَيْهِ، فَلم يكن عِنْده مَا رجت من حسن الْإِيجَاب، وَوَافَقَ ذَلِك عنفاً من الدمستق بِأبي فراس وَمن مَعَه من الأسرى، وَزِيَادَةً فِي إرهاقهم، فَكتب إِلَى سيف الدولة:

يَا حسرةً مَا أكاد أحملها

آخرهَا مزعجٌ وأولها

عليلةٌ بالشآم مُفْردَةٌ

بَات بأيدي العدى معلّلها

تسْأَل عَنَّا الركْبَان جاهدةً

بأدمعٍ مَا تكَاد تمهلها

يَا أمّتا هَذِه مَنَازلنَا

نتركها تَارَة وننزلها

وَقَالَ أيضاً:

أَرَاك عصيَّ الدَّمع شيمَتُك الصَّبْر

أمَا للهوى نهيٌ عَلَيْك وَلَا أَمرُ

بلَى أَنا مشتاق وَعِنْدِي لوعةٌ

وَلَكِنّ مثلي لَا يذاع لَهُ سرُّ

إِذا اللَّيْل أضوى بِي بسطت يَد الرّجا

وأذللت دمعًا من خلائقه الْكِبْرُ

تكَاد تضيء النَّار بَين جوانح

إِذا هِيَ أذكتها الصبابةُ والفكرُ

وَمِنْهَا:

أسرت وَمَا صحبي بعزلٍ لَدَى الوغى

وَلَا فرسي مهر وَلَا ربّه غُمْر [55]

وَلَكِن إِذا حمّ الْقَضَاء على امْرِئٍ

فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَقِيه وَلَا بَحرُ

وَقَالَ أصيحابي: الْفِرَار أَو الرّدى

فَقلتُ: هما أَمْرَانِ أحلاهما مرُّ

ولكنّني أمضي لما لَا يعيبني

وحسبُك من أَمريْن خيرُهما الْأسرُ

وَذكر ابْن خالويه أَنّ آخر شعر لأبي فراس قَوْله عِنْد مَوته:

أبنيّتي لَا تجزعي

كلّ الْأَنَام إِلَى ذهَاب

نوحي عَليّ بحسرة

من خلف سِتْرك والحجاب

قولي إِذا كَلَّمتنِي

وعجُزتُ عَن ردّ الْجَواب

زين الشَّبَاب أَبُو

فراس لم يُمتّعْ بالشباب

فِي مُلَحِ شِعْر آل حمدَان وَغَيرهم من أهل الشَّام

آل حمدَان:

قال المتنبي لمّا عوتب فِي آخر أيَّامه على تراجع شعره: قد تجوَّزت فِي قولي، وأعفيتُ طبعي، واغتنمتُ الرَّاحَة مُنْذُ فَارَقت آل حمدَان، وَفِيهِمْ مَن يَقُول:

وَقد علمتْ بِمَا لاقته منّا

قبائلُ يعربٍ وَبَنُو نزارِ

لَقِينَاهُمْ بأرماحٍ طوالٍ

تبشّرهم بأعمارٍ قصارِ

يَعْنِي أَبَا زُهَيْر مهلهل بن نصر بن حمدَان، ولأبي العشائر:

سَطَا علينا، وَمن حَاز الْجمال سَطَا

ظَبْيٌ من الْجنَّة الفردوس قد هبطا

لَهُ عذاران قد خطّا بوجنته

فاستوقفا فَوق خدّيه وَمَا انبسطا

وظلّ يخطو فَكلٌّ قَالَ مِنْ شغفٍ:

يَا ليته فِي سَواد الناظرين خطا

وقَالَ أَبُو المطاع ذُو القرنين بن نَاصِر الدولة:

إِنِّي لأحسد "لَا"فِي أسطرِ الصُّحُف

إِذا رَأَيْتُ اعتناق اللَّام للألفِ

وَمَا أظنُّهما طَال اجْتِمَاعهمَا

إِلَّا لما لقيا من شدَّة الشغفِ

ابْنا وَرْقَاء الشَّيْبَانِيّ:

من رُؤَسَاء عرب الشَّام وقوّادها، والمختصين بِسيفِ الدولة. وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أديبٌ شَاعِرٌ جوادٌ ممدٌّح، وَبَينهمَا وَبَين أبي فراس مجاوبات، وإليهما أرسل أَبُو فراس يَقُول من قصيدة:

أَتَانِي عَن بني وَرْقَاء قَولٌ

ألذُّ جنًى مِن المَاءِ القراحِ

وَأطيب من نسيم الرَّوْض حفّتْ

بِهِ اللَّذَّات من روحٍ وَرَاحِ

وَلَو أَنِّي اقترحتُ على زماني

لكنتم، يَا بني وَرقا، اقتراحي

وَلأبي أَحْمد فِي جوابها من قصيدة أَوَّلها:

أصاحِ قلبُهُ أمْ غيرُ صَاحِ

وَقد عنَّتْ لَهُ عُفْرُ البِطَاحِ[56]

ظباءُ الْوَحْش تحكي ماثلاتٍ

ظباءَ الْإِنْس بالصِّور الملاحِ

عَليّ بن عبد الْملك الرقي القَاضِي بحلب:

هُوَ الَّذِي يَقُول فِيهِ السّري الْموصِلِي:

كساني ظلّ وابلِه، وآوى

غرائب منطقي بعد اغترابِ

وَكنت كروضةٍ سقيت سحابًا

فأثنتْ بالنسيم على السَّحَابِ

وَكتب إِلَيْهِ أَبُو فراس -وَقد عزم على الْمسير إِلَى الرقة- قصيدة افتتاحها:

يَا طولَ شوقيَ إِنْ كَانَ الرحيل غَدا

لَا فرَّق الله فِيمَا بَيْننَا أبدا

فَأَجَابَهُ القَاضِي بقصيدة أَولهَا:

الْحَمد لله حمدًا دَائِمًا أبدا

أَعْطَانِيَ الدَّهْر مَا لم يُعْطه أحدا

ابن خالويه:

أَصله من همذان، واستوطن حلب، وَصَارَ بهَا أحد أَفْرَاد الدَّهْر فِي كلّ قسم من أَقسَام الْأَدَب وَالْعِلم، وَكَانَت إِلَيْهِ الرحلة من الْآفَاق، وَآل حمدَان يكرّمونه، ويدرسون عَلَيْهِ، ويقتَبسون مِنْهُ، وَله شِعر لم يحضرنَي مِنْهُ الْآن إِلَّا قَوْله فِي وصف بَرْدَ همذان:

إِذا همذان اعتارها القَرُّ وانقضى

برغمك أيلول وَأَنتَ مُقيمُ

فعينك عمشاء وأنفك سَائلٌ

ووجهك مسودّ الْبيَاض بهيمُ

وَأَنتَ أَسِير الْبرد تمشي بعلَّة

على السَّيْف تحبو مرَّة وَتقومُ

بِلَادٌ إِذا مَا الصَّيف أقبل جنَّةٌ

وَلكنَّها عِنْد الشتَاء جحيمُ

ابن جنّي اللّغوِيّ:

هُوَ القطب فِي لِسَان الْعَرَب، وَإِلَيْهِ انْتَهَت الرياسة فِي الْأَدَب، وَصَحب أَبَا الطّيب دهرًا طَويلًا، وَشرح شعره، وَنبَّه على مَعَانِيه وَإِعْرَابه، وَكَانَ الشّعْرُ أقلَّ خلاله لعظم قَدْره، وارتفاع حَاله. فَمن ذَلِك قَوْله فِي الْغَزل:

غزالٌ غير وَحشِيٍّ

حكى الوحشيُّ مقلتَهُ

رَآهُ الْورْدُ يجني الْورْ

دَ فاستكساه حُلَّتَهُ

أبو الطّيب المتنبّي:

هُوَ -وَإِنْ كَانَ كُوفِي المولد- شَاميّ المنشأ، وَبهَا تخرج، وَمِنْهَا خرج، نادرة الْفلك، وواسطة عقد الدَّهْر فِي صناعَة الشِّعْر، ثمَّ هُوَ شَاعِر سيف الدولة الْمَنْسُوب إِلَيْهِ، الْمَشْهُور بِهِ؛ إِذْ هُوَ الَّذِي جذب بضبعه[57]، وَرفع من قَدْره، ونفق سعر شعره، وَألقى عَلَيْهِ شُعَاع سعادته، حَتَّى سَار ذكره مسيرَ

الشَمْس وَالْقَمَر، وسافر كَلَامه فِي البدو والحضر، وكادت الليَالِي تنشده، وَالأيَّام تحفظه، كَمَا قَال وَأحسن مَا شَاءَ:

وَمَا الدَّهْر إِلَّا من رُوَاة قصائدي

إِذا قلتُ شعرًا أصبح الدَّهْرُ منشدا

فَسَار بِهِ مَن لَا يسير مشمِّرا

وغنّى بِهِ من لَا يُغنّي مغرِّدا

فَلَيْسَ الْيَوْم مجَالِس الدَّرْس أَعْمَر بِشعر أبي الطّيب من مجَالِس الْأنس، وَلَا أَقْلَام كتّاب الرسائل أجْرى بِهِ من ألسن الخطباء فِي المحافل، وَلَا لحون المغنّين والقوالين أشغل بِهِ من كتب المؤلفين والمصنَّفين. وَقد أُلفتْ الْكتب فِي تَفْسِيره، وَحلّ مشكله وعويصه، وَكَثُرتْ الدفاتر على ذكر جيِّده ورديئه، وَتكلَّم الأفاضل فِي الوساطة بَينه وَبَين خصومه، والإفصاح عَن أبكار كَلَامه وعونه. وَتَفَرَّقُوا فِرقًا فِي مدحه والقدح فِيهِ والنّضح عَنهُ، والتعصب لَهُ وَعَلِيهِ. وَذَلِكَ أول دَلِيل دلّ على وفور فَضله، وَتقدّم قدمه، وتفرده عَن أهل زَمَانه، بِملك رِقَاب القوافي، ورق الْمعَانِي، فالكامل مَن عُدَّتْ سقطاته، والسعيد مَن حُسبتْ هفواته، "وَمَا زَالَت الْأَمْلَاك تُهْجَى وتُمْدَحُ".

ابْتِدَاء أمره:

ذكرتْ الرَّواة أَنّه ولد بِالْكُوفَةِ فِي كِنْدَة سنة ثَلَاث وثلاثمئة، وَأَنّ أَبَاهُ سَافر إِلَى بِلَاد الشَّام، فَلم يزل يَنْقُلهُ من باديتها إِلَى حضرها، وَمن مدرها إِلَى وبرها، ويسلمه فِي الْمكَاتب، ويردّده فِي الْقَبَائِل،

ومخايله نواطق الَحسنى عَنهُ. وضوامِن النجح فِيهِ، حَتَّى توفي أبوهُ وَقد ترعرع أَبُو الطيب وَشعر وبرع، وَبلغ من كبر نَفسه وَبعد همّته أَنْ دَعَا إِلَى بيعَته قومًا من رائشي نبله[58]، على الحداثة من سِنِّه، والغضاضة من عُوده. وَحين كَاد يتمّ لَهُ أمر دَعوته تأدّى خَبره إِلَى وَالِي الْبَلدة، وَرفع إِلَيْهِ مَا هم بِهِ من الْخُرُوج، فَأمر بحبسه وتقييده، وَهُوَ الْقَائِل فِي الْحَبْس قصيدته الَّتِي أَولهَا:

أيا خدَّد الله ورد الخَدودِ

وَقدَّ قدود الحسانِ القدودِ

وَمِنْهَا استعطافه ذَلِك الْأَمِير والتنصّل مِمَّا قُذف بِهِ:

دعوتك عِنْد انْقِطَاع الرَّجَا

ء وَالْمَوْت منّي كحبل الوريدِ

دعوتك لمّا براني البلى

وأوهن رجْلي ثقلُ الْحَدِيدِ

وما زال في برد صباه إلى أنْ أخلق برد شبابه، وتضاعفت عقود عمره، يدور حبّ الولاية والرياسة في رأسه، ويظهر ما يضمر من كامن وسواسه، وفي الخروج على السلطان، والاستظهار بالشجعان، والاستيلاء على بعض الأطراف.

نُبَذ من أخباره:

لمّا أَنْشَد سيف الدولة قصيدته الَّتِي أَوَّلهَا:

أجَاب دمعي وَمَا الدَّاعِي سوى طللِ

دَعَا فلبّاه، قبل الرّكب وَالْإِبِلِ

وناوله نسختها وَخرج فَنظر فِيهَا سيف الدولة، فَلَمَّا انْتهى إِلَى قَوْله:

يَا أَيهَا المُحسن المشكور من جهتي

وَالشُّكْر من جِهَة الْإِحْسَان، لَا قبلي

مَا كَانَ نوميَ إِلَّا فَوق معرفتي

بِأَنّ رَأْيكَ لَا يُؤْتى من الزلّل

أقلْ أنلْ أقطعْ احْمِلْ علْ سلْ أعد

زدْ هشّ بشّ تفضّلْ أدنِ سرّ صلِ

وَقّع تَحت أقل: قد أقلناك، وَتَحْت أنل: يحمل إِلَيْهِ من الدَّرَاهِم كَذَا، وَتَحْت أقطع: قد أقطعناك الضَّيْعَة الْفُلَانِيَّة ضَيْعَة بِبِلَاد حلب، وَتَحْت احْمِلْ: يُقَادُ إِلَيْهِ الْفرس الْفُلَانِيّ، وَتَحْت عل: قد فعلنَا، وَتَحْت سل: قد فعلنَا فَسَلْ، وَتَحْت أعد: أعدناك إِلَى حالك من حسن رَأينَا، وَتَحْت زد: يُزَاد كَذَا، وَتَحْت تفضل: قد فعلنَا، وَتَحْت أدن: قد أدنيناك، وَتَحْت سر: قد سررناك. وَتَحْت صل قد فعلنَا.

قَالَ ابْن جنّي: فبلغني عَن المتنبي أَنّه قَالَ: إِنَّمَا أردْتُ سرّ من السّريَّة، فَأمر لَهُ بِجَارِيَة.

قَالَ: وَحكى لي بعض إِخْوَاننَا أَنّ المعقلي -وَهُوَ شيخ كَانَ بِحَضْرَتِهِ ظريف- قَالَ لَهُ -وحسد المتنبي على مَا أَمر بِهِ-: يَا مولَايَ قد فعلت بِهِ كل شَيْء سأَلكه، فَهَلّا قلت لَهُ لما قَالَ لَك هش بش: هه هه هه، يَحْكِي الضحك، فَضَحِك سيف الدولة، فَقَالَ لَهُ: وَلَك أَيْضًا مَا تحب، وَأمر لَهُ بصلَة.

قَالَ الصنوبري: خرجتُ من حلب أُرِيد سيف الدولة، فَلَمَّا برزتُ من السُّور إِذا أَنا بِفَارِس متلثم قد أَهْوى نحوي بِرُمْحٍ طَوِيل، وسدده إِلَى صَدْرِي، فكدت أطرح نَفسِي عَن الدَّابَّة فرَقًا، فَلَمَّا قرب مني

ثنى السّنان وحسر لثامه فَإِذا المتنبي، وأنشدني:

نثرنا رُؤوسًا بالأحيدب مِنْهُمُ

كَمَا نُثرتْ فَوق الْعَرُوس الدَّرَاهِمُ

ثمَّ قَالَ: كَيفَ ترى هَذَا القَوْل؟ أَحسُنُ هُوَ؟ فَقلت لَهُ: وَيحك! قد قتلتني يَا رجل. قَالَ ابْن جني: فحكيت أَنا هَذِه الْحِكَايَة بِمَدِينَة السَّلَام لأبي الطّيب، فعرفها وَضحك لَهَا، وَذكر أَبَا عَليّ من التقريظ وَالثنَاء بِمَا يُقَال فِي مثله.

قَالَ: وأنشدت أَبَا عَليّ لَيْلًا قصيدة أبي الطّيب الَّتِي أَولهَا:

واحرّ قلباه مِمَّن قلبه شبم

فَلَمَّا وصلت إِلَى قَوْله فِيهَا:

وَشرّ مَا قنصتْهُ راحتي قنصٌ

شهب البزاة سَوَاءٌ فِيهِ والرُّخم[59]

أُعجب جدا بِهِ، وَلم يزل يستعيده، حَتَّى حفظه، وَمَعْنَاهُ: إِذا تساويت وَمَن لَا قَدْر لَهُ فِي أَخذ عطاياك فَأَيّ فضل لي عَلَيْهِ؟ وَمَا كَانَ من الْفَائِدَة كَذَا لم أفرح بِهِ، وَإِنَّمَا أفرح بأخذ مَا تخْتَص بِهِ الأفاضل.

وَلمّا قدم أَبُو الطّيب من مصر بَغْدَاد، وترفّع عَن مدح المهلبي الْوَزير، ذَهَابًا بِنَفسِهِ عَن مدح غير الْمُلُوك، شقّ ذَلِك على المهلبي، فأغرى بِهِ شعراء بَغْدَاد، حَتَّى نالوا من عرضه، وتباروا فِي هجائه، وَفِيهِمْ ابْن الْحجَّاج وَابْن سكرة مُحَمَّد، والحاتمي، وأسمعوه مَا يكره، وتماجنوا بِهِ، وتنادروا عَلَيْهِ، فَلم يجبهم وَلم يفكر فيهم، وَقيل لَهُ فِي ذَلِك، فَقَالَ: إِنِّي فرغت من إجابتهم بِقَوْلِي لمن هم أرفع طبقَةً مِنْهُم فِي الشُّعَرَاء:

أرى المتشاعرين غروا بذمّي

وَمن ذَا يحمل الدَّاء العضالا

وَمن يَك ذَا فَمٍ مرٍّ مَرِيضٍ

يجد مرًّا بِهِ المَاء الزلالا

ثمَّ إنّ أَبَا الطّيب المتنبي اتخذ اللَّيْل جَمَلًا، وَفَارق بَغْدَاد مُتَوَجًّها إِلَى حَضْرَة ابن العميد مراغماً لِلمهلبي الْوَزير، فورد أرجان، وَأحمد مورده، فيحكي أَنّ الصاحب طمع فِي زِيَارَة المتنبي إِيَّاه بأصبهان، وإجرائه مجْرى مقصوديه من رُؤَسَاء الزَّمَان، وَهُوَ إِذْ ذَاك شابٌّ وَحاله حويلة، وَلم يكن استوزر بعد، وَكتب إِلَيْهِ يلاطفه فِي استدعائه، وتضمن لَهُ مشاطَرته جَمِيع مَاله، فَلم يقم لَهُ المتنبي وزنًا، وَلم يجبهُ عَن كِتَابه وَلَا إِلَى مُرَاده، وَقصد عضد الدولة بشيراز، فأسفرت سفرته عَن بُلُوغ الأمنية، وورود مشرع الْمنيّة، واتّخذه الصاحب غَرضًا يرشقه بسهام الوقيعة، ويتتبع عَلَيْهِ سقطاته فِي شعره وهفواته، وينعى عَلَيْهِ سيئاته، وَهُوَ أعرف النَّاس بحسناته، وأحفظهم لَهَا، وَأَكْثَرهم اسْتِعْمَالا إِيَّاهَا وتمثّلًا بهَا فِي محاضراته ومكاتباته.

نثر الصاحب وتأثره بألفاظ المتنبي:

فصل لَهُ من رِسَالَة فِي وصف قلعة افتتحها عضد الدولة:

وَأما قلعة (كَذَا) فقد كَانَت بَقِيَّة الدَّهْر المديد، والأمد الْبعيد، تعطس بأنف شامخ من المنعة، وتنبو بعطف جَامع على الْخطْبَة، وَترى أَنّ الْأَيَّام قد صالحتها على الإعفاء من القوارع، وعاهدتها على التَّسْلِيم من الْحَوَادِث، فَلَمَّا أتاح الله للدنيا ابْن بجدتها، وَأبا بأسها ونجدتها، جهلوا بون مَا بَين البحور والأنهار، وظنّوا الأقدار تأتيهم على مِقْدَار، فَمَا لَبثُوا أَن رَأَوْا معقلهم الْحصين ومثواهم الْقَدِيم، نهزة الْحَوَادِث، وفرصة البوائق، ومجر العوالي، ومجرى السوابق.

وَإِنَّمَا ألمَّ بِأَلْفَاظ بَيْتَيْنِ لأبي الطّيب أَحدهمَا:

حَتّى أَتَى الدُّنْيَا ابْن بجدتها

فَشَكا إِلَيْهِ السهل والجبل[60]

وَالْآخر:

تذكّرت مَا بَين العذيب وبارق

مجرّ عوالينا ومجرى السوابقِ

وَفصل لَهُ ـلَئِن كَانَ الْفَتْح جليل الْخطر، عَظِيم الْأَثر، فَإِنّ سَعَادَة مَوْلَانَا لتبشّر بشوافع لَهُ، يعلم مَعهَا أَنّ لله أسرارًا فِي علاهُ لَا يزَال يبديها، ويصل أوائلها بتواليها.

وَهُوَ من قَول أبي الطّيب

وَلله سرٌّ فِي علاك، وَإِنَّمَا

كَلَام العدى ضربٌ من الهذيانِ

وَله من رِسَالَة فِي التهنئة ببنت أَولهَا ـأَهلًا بعقيلة النِّسَاء، وكريمة الْآبَاء، وَأم الْأَبْنَاء، وجالبة الأصهار، وَالْأَوْلَاد الْأَطْهَار، ثمَّ يَقُول فِيهَا:

وَلَو كَانَ النِّسَاء كَمثل هذي

لفضلتِ النِّسَاء على الرِّجَال

وَمَا التَّأْنِيث لاسم الشَّمْس عيبٌ

وَلَا التَّذْكِير فَخرٌ للهلال

وهما لأبي الطّيب من قصيدة فِي مرثية وَالِدَة سيف الدولة إِلَّا أَنه يَقُول:

وَلَو كَانَ النِّسَاء كمن فَقدنَا

وَهَذَا غيضٌ من فيض مَا اغترفه الصاحب من بَحر المتنبي، وتمثّل بِهِ من شعره. وَلَو ذكرت نَظَائِره لامتدّ نفس هَذَا الْبَاب.

وَلَيْسَ هُوَ بأوحد فِي الاقتباس من كَلَامه، هَذَا أَبُو إِسْحَاق الصابي رسيله فِي ذَلِك وزميله، وَقد قَرَأتُ لَهُ غيرَ فصلٍ فِيمَا أشرت إِلَيْهِ، ونبّهت عَلَيْهِ: فَمِنْهُ مَا كتب فِي تقريظ - شَابّ مقتبل الشبيبة، مكتهل الْفَضِيلَة، وَلَقَد آتَاهُ الله فِي اقتبال الْعُمر جَوَامِعَ الْفضل، وسوغه فِي عنفوان الشَّبَاب محامد الاستكمال، فَلَا تَجِد الكهولة خلَّة تتلافاها بتطاول الْمدَّة، وثلمةً تسدها بمزايا الحنكة.

وَإِنَّمَا هُوَ حَلّ نَظْم أبي الطّيب، وَإِنْ كَانَ فِي معنى آخر:

لَا تَجِد الْخمر فِي مكارمه

إِذا انتشى خلَّة تلافاها

وَمِمَّنْ يحذو حذوهما الْأُسْتَاذ أَبُو الْعَبَّاس أَحْمد بن إِبْرَاهِيم الضَّبِّيّ، وَمَا أظرف مَا قَرَأت لَهُ فِي كِتَابه إِلَى أبي سعيد الشبيبي:

"وَقد أَتَانِي كتاب شيخ الدّولتين فَكَانَ فِي الْحسن، رَوْضَة حزن[61] بل جنَّة عدن. وَفِي شرح النَّفس، وَبسط الأنس، برد الأكباد والقلوب، وقميص يُوسُف فِي أجفان يَعْقُوب".

وَهُوَ من بَيت أبي الطّيب:

كَأَنّ كلّ سُؤالٍ فِي مسامعه

قَمِيصُ يُوسُف فِي أجفان يَعْقُوبِ

وَفصل لأبي بكر الْخَوَارِزْمِيّ -وَكَيف أمدح الْأَمِير بخلقٍ ضنّ بِهِ الْهَوَاء، وامتلأت من ذكره الأَرْض وَالسَّمَاء، وأبصره الأَعْمَى بِلَا عينٍ، وسَمعه الْأَصَم بِلَا أذن.

وَهُوَ حل نظم أبي الطّيب:

تنشد أثوابنا مدائحهُ

بألسنٍ مَا لهُنَّ أفْوَاهُ

إِذا مَرَرْنَا على الْأَصَمّ بهَا

أغنته عَن مسمعيه عَيناهُ

وَلأبي بكر من رِسَالَة -وَلَقَد تَسَاوَت الألسن حَتَّى حسد الأبكم، وأفسد الشّعْر حَتَّى أَحْمد الصمم.

وَهُوَ قَول أبي الطّيب:

وَلَا تُبالِ بِشعرٍ بعد شاعره

قد أفسد القَوْل حَتَّى أَحْمد الصممُ

وَهَذَا ميدانٌ عريضٌ، وشوطٌ بطينٌ، وَفِيمَا ذُكر كِفَايَة.

أنموذج لسرقات الشُّعَرَاء مِنْ أبي الطّيّب:

قَالَ المتنبي:

وَقد أَخذ التَّمام الْبَدْر فيهمْ

وَأَعْطَانِي من السّقم المِحاقا[62]

أَخذه أَبُو الْفرج الببغاء فلطّفه وَقَالَ:

أوليس من إِحْدَى الْعَجَائِب أنّني

فارقته وحييت بعد فِرَاقه

يَا مَن يحاكي الْبَدْر عِنْد تَمَامه

ارْحَمْ فَتًى يحكيه عِنْد مِحاقه

وَقَالَ أَبُو الطّيب، وَهُوَ أَيْضا من قلائده:

لبسن الوشيَ لَا متجمّلات

وَلَكِنْ كي يصِنَّ بِهِ الجمالا

أغارَ عَلَيْهِ الصاحب لفظًا وَمعنًى فَقَالَ:

لبسن برود الوشي لَا لتجمّلٍ

وَلَكِنْ لصون الْحسن بَين برود

وَقَالَ أَبُو الطّيب، وَهُوَ من فرائده:

سقاك وحيّانا بك الله، إِنَّمَا

على العيس نورٌ والخدور كمائمهْ

أَخذه السّري بن أَحْمد، قَالَ ابْن جني: أَنْشدني لنَفسِهِ من قصيدة يمدح بهَا أَبَا الفوارس سَلامَة بن فَهد وَهِي قَوْله:

حَيّا بِهِ الله عاشِقيه فقد

أصبح رَيْحَانَةَ لمن عشقا

وَلم أجد أَنا هَذِه القصيدة فِي ديوَان شعره، وَالْبَيْت نِهَايَة فِي العذوبة، وخفة الرّوح.

وَالسّري كَثِير الْأَخْذ من أبي الطّيب فِي مثل قَوْله:

وأحلّها من قلب عاشقها الْهوى

بَيْتًا بِلَا عمدٍ وَلَا أطنابِ

وَهُوَ من قَول أبي الطّيب:

هام الْفُؤَاد بأعرابيةٍ سكنتْ

بَيْتًا من الْقلب لم تضرب بِهِ طُنُبا

وَقَالَ أَبُو الطّيب، وَهُوَ من قلائده:

فَإِنْ تفق الْأَنَام وَأَنت مِنْهُم

فَإِنّ الْمسك بعض دم الغزال

وَقَالَ أَيْضًا:

وَمَا أَنا مِنْهُم بالعيش فيهم

وَلَكِن مَعْدن الذَّهَب الرّغام[63]

أَخذ أَبُو بكر الْخَوَارِزْمِيّ معنى الْبَيْتَيْنِ، وهما قريب من قريب، فَقَالَ:

فديتك مَا بدا لي قصد حرٍّ

سواك من الورى إِلَّا بدا لي

وَأَنَّك مِنْهُمُ وكذاك أَيْضًا

من المَاء الفرائد واللآلي

وتسكن دَارهم وكذاك سُكْنى الْـ

ـحِجَارَة والزّمرد فِي الْجبَال

وَإِذ قد ذكرت أنموذجا من سرقات الشُّعَرَاء مِنْهُ، فَلَا بَأْس أَنْ أذكر سرقاته من الشُّعَرَاء، سوى مَا أورَدهُ القَاضِي الجرجاني فِي كتاب "الوساطة"فشفى وَكفى وَبَالغ فأوفى.

صدر من سرقات أبي الطيب:

قَالَ بشار بن برد:

كَأَنّ مثار النَّقْع فَوق رؤوسنا

وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبهْ[64]

أَخذه أَبُو الطّيب وَذَكَر الرماح مَكَان الأسياف، فَقَالَ:

وكأنما كسيَ النَّهَار بهَا دجى

ليلٍ، وأطلعتِ الرّماح كواكبا

وَقَالَ مُسلم بن الْوَلِيد:

أَرَادوا ليخفوا قَبره من عدوّه

فطيْبُ تُرَاب الْقَبْر دلَّ على الْقَبْرِ

ألم بِهِ أَبُو الطّيب، فَقَالَ:

وَمَا ريح الرياض لَهَا وَلَكِنْ

كساها دفنهم فِي التّرب طيبا

وَقَالَ أَبُو نواس وَيُقَال إِنَّه أمدح بَيت للمحدثين:

وكُّلت بالدهر عينًا غير غافلةٍ

بجود كفّيك تأسو كلَّ مَا جرحا

أَخذه أَبُو الطّيب وَزَاد فِيهِ حسن التَّشْبِيه فَقَالَ:

تَتَبَع آثَار الرزايا بجوده

تَتَبُّع آثَار الأسنّة بِالْقَتْلِ

وَقَالَ أَبُو نواس، وَهُوَ من قلائده فِي وصف الْخمر:

إِذا مَا أَتَت دون اللهاة من الْفَتى

دَعَا همَّه من صَدره برحيلِ

أَخذه أَبُو الطّيب وَنَقله إِلَى معنى آخر، فَقَالَ:

وَمَا هِيَ إِلَّا لَحْظَةٌ بعدَ لَحْظَةٍ

إِذا نزلتْ فِي قلبه رَحل الْعقلُ

وَقَالَ ابْن أبي عُيَيْنَة، ويروي للخليل:

زرْ وَاديَ الْقصر، نعم الْقصر والوادي

فِي منزل حَاضرٍ، إِنْ شِئْتَ، أَو بَادِي

ترقى بِهِ السفن والظلمان حَاضِرَةٌ

والضبُّ وَالنُّون والملّاح وَالْحَادِي[65]

وَهَذَا أحسن مَا قيل فِي وصف مَكَان يجمع بَين أَوْصَاف الْبر وَالْبَحْر والحاضرة والبادية، ألم بِهِ أَبُو الطّيب فِي وصف متصيد عضد الدولة بِنَاحِيَة سهلية جبلية تجمع الأضداد:

سقيًا لدشت الأرزن الطوَالِ

بَين المروج الفيح والأغيالِ[66]

مجاور الْخِنْزِير والرئبالِ

داني الخنانيصِ من الأشبالِ[67]

مستشرف الدبِّ على الغزالِ

مُجْتَمع الأضداد والأشكالِ

وَقَالَ بعض الْعَرَب وَهُوَ من الْأَمْثَال السائرة:

إِذا بلّ من دَاءٍ بِهِ ظنّ أَنَّه

نجا، وَبِه الدَّاء الَّذِي هُوَ قَاتله[68]

أَخذه أَبُو الطّيب فَقَالَ وَأحسن:

وَإِنْ أسلمْ فَمَا أبقى وَلَكِنْ

سلمتُ من الْحِمامِ إِلَى الْحِمام

وَقَالَ بعض الرجّاز:

هَل يغلبني وَاحِدٌ أقاتله

ريمٌ على لبَّاته سلاسلهْ[69]

سلاحه يَوْم الوغى مكاحله

أَخذه أَبُو الطّيب فأكمل الْوَصْف وَأظْهر الْغَرَض حَيْثُ قَالَ:

من طاعني ثغر الرِّجَال جآذرُ

وَمن الرماح دمالجٌ وخلاخل

وَلذَا اسْم أغطية الْعُيُون جفونها

من أَنَّهَا عمل السيوف عوامل

وَقَالَ أَبُو تَمام:

يمدّون بالبيض القواطع أيديًا

فهنّ سَوَاءٌ وَالسُّيُوف قواطعُ

أَخذه أَبُو الطّيب فأوقع التَّشْبِيه على الْجُمْلَة حَيْثُ قَالَ:

همامٌ إِذْ مَا فَارق الغمد سَيْفه

وعاينته لم تدر أَيُّهمَا النصل

وَلابْن الرُّومِي وأجاد:

وَأحسن من عقد العقيلة جيدها

وَأحسن من سربالها المتجرِّد

أَخذه أَبُو الطّيب فَقَالَ:

وَربّ قبحٍ وحليٍّ ثقالِ

أحسن مِنْهَا الْحسن فِي المعطال

وَكَانَ أَبُو الطّيب كثير الْأَخْذ من ابْن المعتز على تَركه الْإِقْرَار بِالنّظر فِي شعر الْمُحدثين: فمما أَخذه مِنْهُ قَوْله:

وتكسب الشَّمْس مِنْك النُّور طالعةً

كَمَا تكسّب مِنْهَا نورها الْقَمَرُ

وَهُوَ معنى قَول ابْن المعتز:

الْبَدْر من شمس الضُّحَى نوره

وَالشَّمْس من نورك تستملي

وَأخذ قَوْله وَهُوَ من قلائده، وَلَعَلَّه أَمِير شعره:

أزورهمْ وَسَوَاد اللَّيْل يشفعُ لي

وأنثني وَبَيَاضُ الصُّبْح يغري بِي

من مصراع لِابْنِ المعتز، ذكر ابْن جني قَالَ: حَدثنِي المتنبي -وَقت الْقِرَاءَة عَلَيْهِ- قَالَ: قَالَ لي حنزابة وَزِير كافور: أحضرت كتبي كلهَا وَجَمَاعَة من الأدباء يطْلبُونَ لي من أَيْن أخذت هَذَا الْمَعْنى، فَلم يظفروا بذلك! وَكَانَ أَكثر من رَأَيْت كتبًا.

قَالَ ابْن جني: ثمَّ إِنِّي عثرت بالموضع الَّذِي أَخذه مِنْهُ، إِذْ وجدت لِابْنِ المعتز مصراعًا بِلَفْظ لين صَغِير جدًا فِيهِ معنى بَيت المتنبي كُله على جلالة لَفظه وَحسن تقسيمه، وَهُوَ قَوْله:

فالشمس نمّامة وَاللَّيْل قوّاد

وَلنْ يَخْلُو المتنبي من إِحْدَى ثَلَاث: إِمَّا أَن يكون ألمَّ بِهَذَا المصراع فحسّنه وزيّنه، وَصَارَ أولى بِهِ، وَإِمَّا أَنْ يكون قد عثر بالموضع الَّذِي عثر بِهِ ابْن المعتز فأربى عَلَيْهِ فِي جودة الْأَخْذ، وَإِمَّا أَنْ يكون قد اخترع الْمَعْنى وابتدعه وَتفرد بِهِ، فَللَّه دره! وناهيك بشرف لَفظه، وبراعة نسجه!

قُبْح الْمَطَالع:

وَحقّه الْحسنُ والعذوبةُ لفظًا، والبراعة والجودة معنًى؛ لِأَنَّهُ أول مَا يقرع الْأذن ويصافح الذِّهْن، فَإِذا كَانَت حَاله على الضِّدّ مَجَّه السّمع، وزجّه الْقلب، وَنَبَتْ عَنهُ النَّفس، وَجرى أَوّله على مَا تَقوله الْعَامَّة: أولُ الدّن دَرْدى.

وَلأبي الطّيب ابتداءات لَيست لِعَمري من أَحْرَارِ الْكَلَام وغرره، بل هِيَ -كَمَا نعاها عَلَيْهِ العائبون- مستشنعةٌ لَا يرفع السّمع لَهَا حجابه، وَلَا يفتح الْقلب لَهَا بَابه:

كَقَوْلِه -وَهُوَ مِمَّا تكلّف لَهُ اللَّفْظ المتعقد، وَالتَّرْتِيب المتعسف، لغير معنىً بديعٍ يَفِي شرفه وغرابته بالتعب فِي استخراجه، وَلَا تقوم فَائِدَة الِانْتِفَاع بِهِ بِإِزَاءِ التأذي باستماعه-:

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمهْ

بِأَنْ تسعدا والدّمع أشفاه ساجمهْ[70]

وَكَقَوْلِه فِي استفتاح قصيدة فِي مدح ملك يُرِيد أَن يلقاه بهَا أوّل لقية:

كفى بك دَاءً أَن ترى الْمَوْت شافيا

وَحسب المنايا أَن يكنَّ أمانيا

وَفِي الِابْتِدَاء بِذكر الدَّاء وَالْمَوْت والمنايا مَا فِيهِ من الطِّيرَة، الَّتِي تنفر مِنْهَا السوقة، فضلًا عَن الْمُلُوك.

قَالَ الصاحب: ذكر الْأُسْتَاذ الرئيس يَوْمًا الشّعْر، فَقَالَ: وَإِنّ أوّل مَا يحْتَاج فِيهِ إِلَيْهِ حسن المطلع، فَإِنّ ابْن أبي الشَّبَاب أَنْشدني فِي يَوْم نيروز قصيدةً ابْتِدَاؤُهَا:

أقبرٌ وَمَا طلّتْ ثراك يَد الطلِّ

فتطيّرت من افتتاحه بالقبر وتنغصت بِالْيَوْمِ وَالشعر، فَقلت: كَذَاك كَانَت حَال ابْن مقَاتل لمّا مدح الدَّاعِي بقوله:

لَا تقل بشرى وَلَكِنْ بشريانِ

غرَّة الدَّاعِي وَيَوْم المهرجان

فَإِنَّهُ نفّر من قَوْله "لَا تقل بشرى"أَشدّ نفار، وَقَالَ: أعمى وتبتدئ بِهَذَا فِي يَوْم مهرجان؟!

قَالَ الصاحب: وَمن عنوان قصائده الَّتِي تحير الأفهام، وتفوت الأوهام، وَتجمع من الْحساب مَا لَا يدْرك بالأرتيماطيقي، وبالأعداد الْمَوْضُوعَة للموسيقى:

أحادٌ أم سداسٌ فِي أحادِ

لُيَيْلَتنا المَنُوطة بالتنادي

وَهَذَا كَلَام الحكل، ورطانة الزط[71] وَمَا ظَنك بممدوح قد تشمّر للسماع من مادحه فصك سَمعه بِهَذِهِ الْأَلْفَاظ الملفوظة والمعاني المنبوذة؟ فَأَي هزة تبقى هُنَاكَ؟ وَأي أريحية تثبت هُنَا؟

وَقد خطَّأه فِي اللَّفْظ وَالْمعْنَى كثير من أهل اللُّغَة وَأَصْحَاب الْمعَانِي، حَتَّى احْتِيجَ فِي الِاعْتِذَار لَهُ، والنضح عَنهُ، إِلَى كَلَام لَا يستأهله هَذَا الْبَيْت، وَلَا يَتَّسِع لَهُ هَذَا الْبَاب.

قَالَ الصاحب: وَمن افتتاحاته العجيبة قَوْله لسيف الدولة فِي التسلية عِنْد الْمُصِيبَة:

لَا يُحزن الله الْأَمِيرَ فإنّني

لَآخِذٌ من حالاته بِنَصِيبِ

قَالَ الصاحب: لَا أَدْرِي لم لَا يحزن سيف الدولة إِذا أَخذ المتنبي بِنَصِيبٍ من القلق!

اتْبَاع الْفَقْرَة الغراء بِالْكَلِمَةِ العوراء:

والإفصاح بذلك فِي شعره عَن كَثْرَة التَّفَاوُت، وَقلة التناسب، وتنافر الْأَطْرَاف، وتخالف الأبيات، وَمَا أكثر مَا يحوم حول هَذِه الطَّرِيقَة، وَيعود لهَذِهِ الْعَادة السَّيئَة، وَيجمع بَين البديع النَّادِر والضعيف السَّاقِط. فبينا هُوَ يصوغ أَفْخَر حلي، وينظم أحسن عقد، وينسج أنفس وشي، ويختال فِي حديقة ورد، إِذا بِهِ وَقد رمى بِالْبَيْتِ والبيتين فِي إبعاد الِاسْتِعَارَة، أَو تعويص اللَّفْظ، أَو تعقيد الْمَعْنى، إِلَى الْمُبَالغَة فِي التَّكَلُّف، وَالزِّيَادَة فِي التعمّق، وَالْخُرُوج إِلَى الإفراط والإحالة والسفسفة، والركاكة والتبرد والتوحش، بِاسْتِعْمَال الْكَلِمَات الشاذة، فمحا تِلْكَ المحاسن، وكدّر صفاءها، وأعقب حلاوتها مرَارَة لَا مساغ لَهَا، واستهدف لسهام العائبين، وتحكك بألسنة الطاعنين، فَمن متمثل بقول الشَّاعِر:

أَنْت الْعَرُوس لَهَا جمالٌ رائقٌ

لَكِنَّهَا فِي كلِّ يَوْمٍ تصرعُ

وَمن مشبّه إِيَّاه بِمن يقدّم مائدة تشْتَمل على غرائب المأكولات وبدائع الطَّيِّبَات، ثمَّ يتبعهَا بِطَعَام وضر، وشراب عكر، أَو مَن يتبخر بالند المعشب المثلث، الْمركب من الْعود الْهِنْدِيّ والمسك الأصهب والعنبر الْأَشْهب، ثمَّ يرفقه بإرسال الرّيح الخبيثة، ويفسده بالرائحة الردية، أَو بِالْوَاحِدِ من عقلاء المجانين ينْطق بنوادر الْكَلم، وطرائف الحكم، ثمَّ يَعْتَرِيه سكرة الْجُنُون فَيكون أصلح أَحْوَاله وأمثل أَقْوَاله أَن يَقُول: اعذروني فَإِن الْعذرَة متعذرة.

فمما نشر أَبُو الطّيب من هَذَا النمط قَوْله:

أتراها لِكَثْرَة العشّاق

تحسب الدمع خلقَةً فِي المآقي؟

وَهُوَ ابْتِدَاء مَا سمع بِمثلِهِ، وَمعنى تفرد بابتداعه. وَقَوله:

ليَالِيَّ بعد الظاعنين شكولُ

طوالٌ، وليل العاشقين طَوِيلُ[72]

من قصيدة اخترع أَكثر مَعَانِيهَا، وتسّهل فِي ألفاظها، فَجَاءَت مصنوعة، ثمَّ اعترضته تِلْكَ الْعَادة المذمومة، فَقَالَ:

أغرَّكُمُ طولُ الجيوشِ وعرضُها

عَليٌّ شروبٌ للجيوشِ أكولُ

ثمَّ أَتَى بِمَا هُوَ أَطَمّ مِنْهُ فَقَالَ، وَذكر الصاحب أَنه من أوابده الَّتِي لَا يسمع طول الْأَبَد بِمِثْلِهَا:

إِذا كَانَ بعض النَّاس سَيْفًا لدولةٍ

فَفِي النَّاس بوقاتٌ لَهَا وطبولُ

فَإِنْ تكن الدولات قسمًا فَإِنَّهَا

لمَن ورد الْمَوْتَ الزؤامَ تدولُ

قَالَ الصاحب: قَوْله "الدولات"و"تدول"من الْأَلْفَاظ الَّتِي لَو رزق فضل السُّكُوت عَنْهَا لَكَانَ سعيدًا.

وَقَالَ من قصيدة جمع فِيهَا الشذرة والبعرة، والدرة والآجرة:

لَك يَا منَازِل فِي الْفُؤَاد منَازِل

أقفرت أَنْت، وَهنَّ مِنْك أواهلُ

وَهَذَا ابْتِدَاء حسن وَمعنى لطيف، ثمَّ قَالَ:

وَأَنا الَّذِي اجتلب الْمنيَّة طرفُهُ

فَمَن المطالبُ والقتيلُ الْقَاتِلُ

وَهُوَ وَإِنْ كَانَ مأخوذًا من قَول دعبل:

لَا تطلبا بظلامتي أحدًا

طرفِي وقلبي فِي دمي اشْتَركَا

فَإِنَّهُ آخذ بأطراف الرشاقة والملاحة، ثمَّ اسْتمرّ فِي قصيدته، فجَاء بالمتوسط المقارب، والبديع النَّادِر، والرديء النافر، حَيْثُ قَالَ:

وَلذَا اسْم أغطية الْعُيُون جفونها

من أَنَّهَا عمل السيوف عوامل

وَهَذَا معنى فِي نِهَايَة الْحسن واللطف لَو ساعده اللَّفْظ، ثمَّ قَالَ:

كم وَقْفَةٍ سجرتك شوقًا بَعْدَمَا

غريَ الرَّقِيب بِنَا ولجَّ العاذل

فَلم يحسن موقع قَوْله "سجرتك"أَي ملأتك (هَكَذَا الرِّوَايَة بِالْجِيم، وَلَو كَانَت بِالْحَاء من السحر لم يكن بَأْس)، ثمَّ قَالَ فَأحْسن غَايَة الْإِحْسَان:

للَهو آونة تمرُّ كَأَنَّهَا

قَبلَ يزوّدها حبيبٌ راحل

جمع الزَّمَانُ فَمَا لذيذٌ خَالصٌ

مِمَّا يشوب، وَلَا سرُورٌ كَامِل

حَتَّى أَبُو الْفضل بن عبد الله رُؤْ

يَته المُنى وَهُوَ الْمقَام الهائل

قَالَ ابْن جني: وَهَذَا خُرُوج غَرِيب ظريف حسن، مَا أعرفهُ لغيره يَقُول: إِنّ المُنى رُؤْيَته إِلَّا أَنّ هيبته تهول.

ثمَّ قَالَ فأحال:

لَو طَابَ مَولِد كلّ حَيٍّ مثله

ولد النِّسَاء وَمَا لَهُنَّ قوابل[73]

قَالَ القَاضِي أَبُو الْحسن: إِنَّ طيب المولد لَا يسْتَغْنى بِهِ عَن الْقَابِلَة، وَإِنْ اسْتغنى عَنْهَا كَانَ مَاذَا؟ وَأيّ فَخر فِيهِ؟ وَأيّ شرف ينَال بِهِ؟

ثمَّ توَسط وقارب فَقَالَ:

ليزد بَنو الْحسن الشّراف تواضعًا

هَيْهَات تُكْتم فِي الظلام مشاعلُ

سَتَروا النَدى سَترَ الغُرابِ سِفادَهُ

فَبَدا وَهَل يَخفى الرَّبابُ الهاطِلُ؟ [74]

ثمَّ قَالَ:

يَا افْخرْ فَإِنّ النَّاس فِيك ثَلَاثَةٌ:

مستعظمٌ: أو حَاسِدٌ، أو جَاهِل

أَي: يَا هَذَا افخر، فَحذف المنادى، وتباغض وتبادى، ثمَّ قَالَ:

لَا تجسر الفصحاء تنشد هَهُنَا

شعرًا، وَلَكِنِّي الهزبرُ الباسلُ

ثمَّ قَالَ وأرسله مثلًا سائرًا، وَأحسن جدًا:

وَإِذا أتتك مذمّتي من نَاقصٍ

فَهِيَ الشَّهَادَة لي بِأَنِّي كَامِلُ

مَا نَالَ أهل الْجَاهِلِيَّة كلّهم

شعري، وَلَا سَمِعت بسحري بابلُ

ثمَّ قَالَ وتعسف فِي اللَّفْظ:

الطّيب أَنْت إِذا أَصَابَك طيبه

وَالْمَاء أَنْت إِذا اغْتَسَلت الْغَاسِلُ

وَتَقْدِير الْكَلَام: الطّيب أَنْت طيبه إِذا أَصَابَك، وَالْمَاء أَنْت غاسله إِذا اغْتَسَلت بِهِ.

ثمَّ قَالَ، وَأحسن ولطف وظرف:

قد كنتُ أشْفق من دمعي على بَصرِي

فاليوم كلُّ عَزِيزٍ بعدكم هانا

ثمَّ أَرَادَ أَن يزِيد على الشُّعَرَاء فِي وصف المطايا، فَأتى -كَمَا قَالَ الصاحب- بأخزى الخزايا، فَقَالَ:

لَو اسْتَطَعْتُ ركبتُ النَّاس كلّهم

إِلَى سعيد بن عبد الله بُعْرانا

قَالَ الصاحب: وَمن النَّاس أمّه، فَهَل ينشط لركوبها؟ والممدوح لَعَلَّ لَهُ عصبَة لَا يُرِيد أَن يركبُوا إِلَيْهِ، فَهَل فِي الأَرْض أفحشُ من هَذَا السُّخف وأوضعُ من هَذَا التبسط؟

ثمَّ أَرَادَ أَن يسْتَدرك هَذِه الطامة بقوله:

فالعيسُ أَعقلُ مِن قومٍ رَأَيْتهمُ

عَمَّا يرَاهُ من الْإِحْسَان عُميانا

وملمومةٍ زَرَدٍ ثَوْبُها

وَلكنّه بالقنا مُخملُ[75]

يفاجئ جَيْشًا بهَا حِينه

وينذر جَيْشًا بهَا القسطل[76]

ثمَّ يتَصَوَّر فِي هَذَا الْكَلَام الغثّ الرّث فيتبعه بِهِ حَيْثُ يَقُول:

جعلتك فِي الْقلب لي عدَّةً

لِأَنَّك بِالْيَدِ لَا تجْعَلُ

وَلَو قَالَه بعض صبيان الْمكَاتب لاستحيا لَهُ مِنْهُ.

اسْتِكْرَاه اللَّفْظ وتعقيد الْمَعْنى:

وَهُوَ أحد مراكبه الخشنة الَّتِي يتسنّمها، وَيَأْخُذ عَلَيْهَا فِي الطّرق الوعرة، فيضَل ويضِلّ، ويتعب، ويُتعب وَلَا ينجح؛ إِذْ يَقُول فِي وصف النَّاقة:

فتبيت تسئد مسئدًا فِي نيِّها

إسآدَها فِي المَهْمَهِ الإنضاءُ[77]

وَتَقْدِيره: فتبيت تسئد مسئد الإنضاء فِي نيها إسآدها فِي المهمه: أَيْ كلما قطعت الأَرْض قطعت الأَرْض شحمها على احتذاء وَمِثَال هَذَا بِهَذَا.

وَيَقُول فِي الْمَدْح:

أَنّى يكون أَبَا البرايا آدمٌ

وَأَبُوك، والثقلان أَنْت، مُحَمَّدُ[78]

وَتَقْدِيره: أَنّى يكون آدم أَبَا البرايا، وَأَبُوك مُحَمَّد وَأَنت الثَّقَلَان؟

وَقَال من نسيب قصيدة:

إِذا عذلوا فِيهَا أجبْت بأنَّة

حبيبتا قلبِي فُؤَادِي هيا جمل

أَرَادَ "يَا حُبَيبتي"ثمَّ أبدل الْيَاء من حُبَيْبتي ألفَا تَخْفِيفًا، و"قلبي"مَنْصُوب لِأَنَّهُ بدل من حبيبتا، و"فؤادي"بدل من قلبِي، وَهَذَا كَقَوْلِك: أخي سَيِّدي مولَايَ، نِدَاء بعد نِدَاء، وَيُقَال فِي النداء: يَا زيد، وأيا زيد، وهيا زيد.

وَأَشْبَاه هَذِه الأبيات كَثِيرَةٌ فِي شعره كَقَوْلِه:

لَو لم تكنْ من ذَا الورى اللذ مِنْك هُوَ

عقمت بمولد نسلها حَوَّاءُ

وَهُوَ مِمَّا اعتل لَفظه، وَلم يَصح مَعْنَاهُ، فَإِذا قرع السّمع لم يصل إِلَى الْقلب إِلَّا بعد إتعاب الْفِكر، وكدّ الخاطر وَالْحمل على القريحة، ثمَّ إِنْ ظفر بعد العناء وَالْمَشَقَّة فقلما يحصل على طائل.

عَسْف اللُّغَة وَالْإِعْرَاب:

وَهُوَ مِمَّا سبق إِلَى الْقُلُوب إِنْكَاره، وَإِنْ كَانَ عِنْد المحتجين عَنهُ الِاعْتِذَار لَهُ، والمناضلة دونه، كَقَوْلِه:

فدى من على الغبراء أَوَّلهمْ أَنا

لهَذَا الأبي الْمَاجِد الجائد القرمِ

وَلم يُحكَ عَن الْعَرَب "الجائد"وَإِنَّمَا المحكيّ رجلٌ جوادُ، وَفرسٌ جوادٌ، ومطر جواد. وَكَقَوْلِه:

فأرحام شعرٍ تتصلن لَدنّه

وأرحام مَالٍ لَا تني تتقطَّع

وَتَشْديد النُّون من "الدن"غير مَعْرُوف فِي لُغَة الْعَرَب.

وَكَقَوْلِه:

شَدِيد الْبعد من شرب الشُّمُول

ترنج الْهِنْد أَو طلع النخيلِ

وَالْمَعْرُوف عِنْد الْعَرَب الأترج، والترنج مِمَّا يغلط فِيهِ الْعَامَّة.

وَكَقَوْلِه:

بَيْضَاء يمْنَعهَا تكلّم دلّها

تيها، ويمنعها الْحيَاء تميسا

فنصب "تميس"مَعَ حذف أَن، وَهُوَ ضَعِيف عَن أَكثر النَّحْوِيين.

وَكَقَوْلِه:

وتكرّمتْ ركباتها عَن مَبْركٍ

تقعان فِيهِ لَيْسَ مسكًا أذفرا

فَجمع الركبات ثمَّ انْتقل إِلَى التَّثْنِيَة فَقَالَ "تقعان"، وَهُوَ ضَعِيفٌ وَغير سديد فِي صناعَة الْإِعْرَاب.

وَكَقَوْلِه:

لَيْسَ إلّاك يَا عَليُّ همامٌ

سَيْفه دون عرضه مسلولُ

وَكَقَوْلِه:

لم تَرَ مَن نادمت إِلَّاكَا

لَا لسوى ودّك لي ذَاكَا

فوصل الضَّمِير بإلا، وَحقه أَن ينْفَصل عَنهُ كَمَا قَالَ الله تَعَالَى: (ضل من تدعون إِلَّا إِيَّاه).

وَكَقَوْلِه:

لأَنْت أَسْودُ فِي عَيْني من الظُّلمِ

وَألف التَّعَجُّب[79] لَا تدخل على أفعل، وَإِنَّمَا يُقَال: أَشد سوادًا وَحُمرَة وخضرة.

وَكَقَوْلِه:

جللًا كَمَا بِي فليكُ التُّبريح

وَحذف النُّون من "يكن"إِذا اسْتَقْبلهَا الْألف وَاللَّام خطأ عِنْد النَّحْوِيين، لِأَنَّهَا تتحرك إِلَى الْكسر، وَإِنَّمَا تحذف اسْتِخْفَافًا إِذا سكنت.

وَكَقَوْلِه:

أمطْ عَنْك تشبيهي بِمَا وَكَأَنَّهُ

والتشبيه بِمَا محَال.

وَكَقَوْلِه:

لعظمتَ حَتَّى لَو تكون أَمَانَة

مَا كَانَ مؤتمنًا بهَا جبرين

قَالَ الصاحب: وقلبُ هَذِه اللَّام إِلَى النُّون، أبْغض من وَجه الْمنون، وَلَا أَحسب جِبْرَائِيل عَلَيْهِ السَّلَام يرضى مِنْهُ بِهَذَا الْمجَاز، هَذَا علَى مَا فِي الْبَيْت من الْفساد والقبح.

وَكَقَوْلِه:

حملتُ إِلَيْهِ من ثنائي حديقةً

سَقَاهَا الحجا سقِي الرياض السحائب

أَي: سقِي السحائب الرياض[80].

الْخُرُوج عَن الْوَزْن:

كَقَوْلِه:

تفكُّره علمٌ، ومنطقه حكمُ

وباطنه دينٌ، وَظَاهره ظرفُ

وَقد خرج فِيهِ عَن الْوَزْن، لِأَنَّهُ لم يَجِئ عَن الْعَرَب "مفاعيلن"فِي عرُوض الطوِيل غير مصرّع، وَإِنَّمَا جَاءَ "مفاعلن"، قَالَ الصاحب: وَنحن نحاكمه إِلَى كلّ شعرٍ للقدماء والمحدثين على بَحر الطَّوِيل، فَمَا نجد لَهُ على خطئه مساعدًا.

قَالَ القَاضِي أَبُو الْحسن: وَقد عيب أَيْضا بقوله:

إِنَّمَا بدر بن عمّار سَحَابٌ

هطِلٌ فِيهِ ثَوَابٌ وعقابْ

لِأَنَّهُ أخرج الرَّمَل على "فاعلاتن"وأجرى جَمِيع القصيدة على ذَلِك فِي الأبيات غير المصرّعة، وَإِنَّمَا جَاءَ الشِّعْر على "فاعلن"وَإِنْ كَانَ أَصله فِي الدائرة "فاعلاتن".

اسْتِعْمَال الْغَرِيب الوحشي:

وَإِذا كَانَ المتنبي من الْمُحدثين، بل من العصريين، وَجرى على رسومهم فِي اخْتِيَار الْأَلْفَاظ الْمُعْتَادَة المَألوفة بَينهم، بل رُبمَا انحط عَنْهُم بالرّكاكة والسفسفة، ثمَّ تعاطى الْغَرِيب الوحشي، والشاذ البدوي، بل رُبمَا زَاد فِي ذَلِك على أقحاح الْمُتَقَدِّمين -حصل كَلَامه بَين طرفِي نَقِيض، وَتعرض لاعتراض الطاعنين.

فَمن ذَلِك الْفَنّ الَّذِي يُنَادي على نَفسه، ويقلق موقعه فِي شعره وَشعر غَيره من أَبنَاء عصره قَوْله:

وَمَا أرْضى لمقلته بحلمٍ

إِذا انْتَبَهت توهّمه ابتشاكا

والابتشاك: الْكَذِب، وَلم أسمع فِيهِ شعرًا قَدِيمًا وَلَا مُحدثًا سوى هَذَا الْبَيْت، وَقَوله فِي وصف الْغَيْث:

لِسَاحِيه على الأَجْداثِ حَفْشٌ

كأيدي الْخَيلِ أَبْصرتِ المَخالي

الساحي: القاشر، وَمِنْه سميت المسحاة لِأَنَّهَا تقشر وَجه الأَرْض، والحفش: مصدر حفش السَّيْل حفشًا، إِذا جمع المَاء من كل جَانب إِلَى مستنقع.

وَقَوله فِي وصف السَّيْف:

ودقيقٌ قديَ الهباء أنيقٌ

متوالٍ فِي مستوٍ هزهازِ

قدي: بِمَعْنى مِقْدَار، يُقَال: بَينهمَا قيد رمح، وقدي رمح.

وَقَوله:

تطِسُ الخدود كَمَا تطسن اليرمعا

تطسن: أَي تدق، واليرمع: الْحِجَارَة الرخوة.

وَقَوله:

وَإِلَى حَصى أَرضٍ أَقَامَ بهَا

بِالنَّاسِ منْ تقبيلها يلَلُ

البلل: إقبال الأَسْنَان وانعطافها على بَاطِن الْفَم، وَلم أسمعهُ فِي غير شعره.

وَقَوله:

الشَّمْس تشرق والسّحاب كنهورًا

الكهنور: الْقطع من السَّحَاب الْعَظِيمَة.

وَقَوله:

وَكَيف أستر مَا أوليت من حسنٍ

وَقد غمرت نوالًا أَيهَا النَّال

والنال: الْمُعْطِي.

وَقَوله:

أسائلها عَن المتديّريها

قَالَ الصاحب: لَفْظَة "المتديريها"لَو وَقعت فِي بَحر صَاف لكدّرته، وَلَو أُلْقِي ثقلهَا على جبلٍ سَامٍ لهدّه، وَلَيْسَ للمقت فِيهَا نِهَايَة، وَلَا للبرد مَعهَا غَايَة، المتديروها: المتخذوها دَارًا.

قَالَ الصاحب: وَمن أَطَمّ مَا يتعاطاه التفاصح بالألفاظ النافرة، والكلمات الشاذة، حَتَّى كَأَنَّهُ وليد خباء، وغذي لبن، لم يطَأ الْحَضَر، وَلم يعرف الْمدر، فَمن ذَلِك قَوْله:

أيفطمه التوراب قبل فطامه

ويأكله قبل الْبلُوغ إِلَى الْأكلِ[81]

وَلَيْسَ ذَلِك سائغًا لمثله، وَهُوَ وليد قَرْيَة، ومعلم صبية.

وَمن الجموع الغريبة الَّتِي يوردها قَوْله فِي جمع الأَرْض:

أروضُ النَّاس من تربٍ وَخَوفٍ

وَأَرْضُ أبي شُجَاعٍ من أَمَانِ

وَقَوله فِي جمع اللُّغَة:

عليم بأسرار الديانَاتِ واللُّغَى

وَقَوله فِي جمع الدُّنْيَا:

أعز مَكَان فِي الدنى سَرْجُ سابِح

وَقَوله فِي جمع الْأَخ:

كل آخائه كرام بني الدُّنْيَا

قَالَ الصاحب: لَو وَقع "الآخاء"فِي رائية الشماخ لاستثقل.

الإفراط فِي الْمُبَالغَة وَالْخُرُوج فِيهِ إِلَى الإحالة:

كَقَوْلِه:

ونالوا مَا اشتهوا بالحزم هونًا

وصاد الْوَحْش نملهم دبيبا[82]

وَقَوله:

وَضَاقَتْ الأَرْض حَتَّى صَار هاربهمْ

إِذا رأى غير شَيْءٍ ظَنَّه رجلا

فبعده وَإِلَى ذَا الْيَوْم لَو ركضتْ

بِالْخَيْلِ فِي لَهَوَات الطِّفْل مَا سعلا

وَقَوله:

وأعجب مِنْك كَيفَ قدرت تنشا

وَقد أَعْطَيْت فِي المهد الكمالا

وَأُقسم لَو صلحت يَمِين شَيْءٍ

لما صلح الْعباد لَهُ شمالا

وَقَوله:

بِمن أضْرب الْأَمْثَال؟ أم مَن أقيسه

إِلَيْك وَأهل الدَّهْر دُونك والدهرُ؟

وَقَوله:

وَلَو قلمٌ أَلقيت فِي شقّ رَأسهِ

من السّقم مَا غيّرت من خطِّ كَاتبِ

وَقَوله:

من بعد مَا كَانَ ليلِي لَا صباح لَهُ

كَأَنّ أوّل يَوْم الْحَشْر آخِرُهُ

فَهُوَ مما يستهجن فِي صَنْعَة الشِّعْر، على أَنّ كثيرًا من النّقدة لَا يرتضون هَذَا الإفراط كُلّه.

ضَعف العقيدة ورقّة الدِّين:

على أَن الدَّيانة لَيست عيارًا على الشُّعَرَاء، وَلَا سوء الِاعْتِقَاد سَببًا لتأخر الشَّاعِر، وَلَكِن لِلْإِسْلَام حَقّه من الإجلال الَّذِي لَا يسوّغ الْإِخْلَال بِهِ قولًا وفعلًا ونظمًا ونثرًا، وَمن استهان بأَمْره، وَلم يضع ذكره وَذكر مَا يتَعَلَّق بِهِ فِي مَوضِع اسْتِحْقَاقه، فقد بَاء بغضب من الله تَعَالَى، وَتعرّض لمقته فِي وقته، وَكَثِيرًا مَا قرع المتنبي هَذَا الْبَاب بِمثل قَوْله:

يترشَّفن مِن فمي رشفاتٍ

هنَّ فِيهِ أحلى من التَّوْحِيدِ

وَقَوله:

ونصفي الَّذِي يكنّى أَبَا الْحسن الْهوى

وَنرْضى الذِي يُسمى الْإِلَه وَلَا يُكنّى

وَقَوله من قصيدة مدح بهَا الْعلوِي:

وأبهر آيَات التهاميِّ أَنّه

أبوكم، وَإِحْدَى مالكم من مَنَاقِبِ

وَقَوله:

تتقاصر الأفهام عَن إِدْرَاكه

مثل الَّذِي الأفلاك فِيهِ والدُّنا

وَقد أفرط جدًا؛ لِأَن الَّذِي الأفلاك فِيهِ والدنا هُوَ علم الله عز وَجل.

وَقَوله:

لَو كَانَ علمك بالإلَه مقسَّما

فِي النَّاس مَا بعث الْإِلَه رَسُولا

أَو كَانَ لفظك فيهم مَا أنزل الـ

ـتَّوْرَاة وَالْفرْقَان والإنجيلا.

وَقَوله:

لَو كَانَ ذُو القرنين أعمل رَأْيه

لما أَتَى الظُّلُمَات صرن شموسًا

أو كَانَ صَادف رَأس عازر سَيْفه

فِي يَوْم معركةٍ لأعيا عِيسَى

عازر: اسْم الرجل الَّذِي أَحْيَاهُ الْمَسِيح -عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام- بِإِذن الله عز وَجل.

أَو كَانَ لجُّ الْبَحْر مثل يَمِينه

مَا انْشَقَّ حَتَّى جَازَ فِيهِ مُوسَى

وَكَأن الْمعَانِي أعيته حَتَّى التجأ إِلَى استصغار أُمُور الْأَنْبِيَاء، وَفِي هَذِه القصيدة:

يَا مَن نلوذ من الزَّمَان بظلِّهِ

أبدًا، ونطرد باسمه إبليسا

وَقَوله وَقد جَازَ حد الْإِسَاءَة:

أَيُّ مَحلٍّ أرتقي؟!

أَيُّ عَظِيمٍ أتّقي؟!

وكلُّ مَا قد خلق اللـ

ــه وَمَا لم يَخْلقِ

محتقرٌ فِي همّتي

كشعرةٍ فِي مِفْرَقي

وقبيح بِمن أَوّله نُطْفَة مذرة، وَآخره جيفة قذرة، وَهُوَ فِيمَا بَينهمَا حَامِل بَوْل وعذرة، أَنْ يَقُول مثل هَذَا الْكَلَام الَّذِي لَا تسعه معذرة.

حسن التَّخَلُّص:

كَقَوْلِه:

مرَّت بِنَا بَين تربيها فَقلت لَهَا:

من أَيْن جانس هَذَا الشادن العربا

فَاستَضحَكَت ثُمَّ قالَت كَالمُغيثِ يُرى

لَيثَ الشَرّى وَهوَ مِن عِجلٍ إِذا اِنتَسَبا

وَقَوله:

وغيثٍ ظننا تَحْتَهُ أَنَّ عَامِرًا

علا لم يمت أوفى السَّحَاب لَهُ قبرُ

وَقَوله:

َّ

وَإِلَّا فخانتني القوافي، وعاقني

عَن ابْن عبيد الله ضعف العزائمِ

إِذا صلتُ لم أترك مصالًا لصائلٍ

وَإِنْ قلتُ لم أترك مقَالًا لعَالِمِ

وَقَوله:

نودِّعهم والبين فِينَا كَأَنَّهُ

قِنَا ابْن أبي الهيجاء فِي قلب فيلقِ

وَقَوله:

ومقانبٍ بمقانبٍ غادرتْها

أقواتُ وَحشٍ كنَّ من أقواتها[83]

أقبلتها غرر الْبِلَاد كَأَنَّمَا

أَيدي بني عمرَان فِي جبهاتها

وَقَوله:

حدقٌ يذمُّ من القواتل غَيرهَا

بدر بن عمار بن إسماعيلا

وَقَوله:

وَلو كنتَ فِي أسْر غير الْهوى

ضمنتُ ضَمَان أبي وَائِلِ

فدى نَفسه بِضَمَان النُّضار

وَأعْطى صُدُور القنا الذابلِ

مُخَاطبَة الْمُلُوك مُخَاطبَة الصديق:

وَهُوَ مَذْهَب لَهُ، تفرد بِهِ، واستكثر من سلوكه، اقتدارًا مِنْهُ، وتبحرًا فِي الْأَلْفَاظ والمعاني، ورفعًا لنَفسِهِ عَن دَرَجَة الشُّعَرَاء، وتدريجًا لَهَا إِلَى مماثلة الْمُلُوك، فِي مثل قَوْله لكافور:

وَمَا أَنا بالباغي على الْحبّ رشوةً

ضَعِيف هوًى يَبْغِي عَلَيْهِ ثَوَابُ

وَمَا شِئْتُ إِلَّا أَنْ أدلّ عواذلي

على أَنّ رَأْيِي فِي هَوَاك صَوَابُ

وَأعلم قومًا خالفوني فشرّقوا

وغرَّبتُ، أَنِّي قد ظَفرتُ وخابوا

إِذا نلْتُ مِنْكَ الودّ فَالْمَال هَينٌ

وكل الذِي فَوق التّرَابِ تَرَابُ

وَقَوله لَهُ وَقد أهداه مهْرا أسود:

فَلَو لم تكن فِي مصر مَا سرت نَحْوهَا

بقلب المشوق المستهام المتيَّمِ

وَقَوله لِابْنِ العميد يودِّعه:

تفضلِّت الْأَيَّام بِالْجمعِ بَيْننَا

فَلَمَّا حمدنا لم تدمنا على الْحَمدِ

فجدْ لي بقلبٍ إِنْ رحلتُ فإنّني

مخلٌّف قلبِي عِنْد من فَضله عِنْدِي

وَقَوله لعضد الدولة:

أروح وَقد ختمتُ على فُؤَادِي

بحبّك أَنْ يحلَّ بِهِ سواكا

فَلَو أَنِّي اسْتَطَعْتُ حفظتُ طَرْفِــي

فَلم أبْصرْ بِهِ حَتَّى أراكا

وَكَقَوْلِه لسيف الدولة:

مَا لي أكتِّمُ حبًّا قد بَرى جَسَدِي

وتدّعي حبَّ سيف الدولة الْأُمَمُ؟

إِنْ كَانَ يجمعنا حبٌّ لغرَّته

فليتَ أَنَّا بِقَدْرِ الْحبِّ نقتسِمُ

يَا أعدلَ النَّاسِ إِلَّا فِي معاملتي

فِيكَ الْخِصَام، وَأَنتَ الْخَصم وَالْحكمُ

إِذا رَأَيْتَ نيوب اللَّيْثِ بارزةً

فَلَا تَظنَّنَّ أنَّ اللَّيْث يبتسمُ

أُعِيذهَا نظراتٍ مِنْك صَادِقَةً

أَنْ تحسَبَ الشَّحْمَ فِيمَن شحمُهُ ورمُ

وَمَا انْتِفَاع أخي الدُّنْيَا بناظره

إِذا اسْتَوَت عِنْده الْأَنْوَار وَالظُّلَمُ

يَا من يعزُّ علينا أَنْ نفارقهمْ

وجداننا كلّ شَيْءٍ بعدكم عدمُ

إِنْ كَانَ سَرَّكم مَا قَالَ حاسدُنا

فَمَا لجرحٍ -إِذا أرضاكم- ألمُ

وبيننا، لَو رعيتم ذَاك، معرفَةٌ

إِنَّ المعارف فِي أَهلِ النُّهى ذممُ

مَا أبعد الْعَيْب وَالنُّقْصَان من شرفي

أَنا الثريا وذانِ الشَّيبُ والهرمُ

لَيْت الْغَمَامَ الَّذِي عِنْدِي صواعقُهُ

يزيلهنّ إِلَى مَن عِنْده الدِّيمُ

شَرّ الْبِلَاد بِلَادٌ لَا صديق بهَا

وَشرٌّ مَا يكْسب الْإِنْسَان مَا يصمُ

وَشرٌّ مَا قنصته راحتي قَنَصٌ

شهبُ البزاة سَوَاءٌ فِيهِ والرَّخمُ

وَهِي -على براعتها، واستقلال أَكثر أبياتها بأنفسها- تكَاد تدخل فِي بَاب إساءة الْأَدَب بالأدب.

ذكر آخِر شعره وَأمره:

لما أنجحت سفرته، وربحت تِجَارَته بِحَضْرَة عضد الدولة. وَوصل إِلَيْهِ من صلَاته أَكثر من مِئَتي دِرْهَم -استأذنه فِي الْمسير عَنْهَا ليقضي حوائج فِي نَفسه، ثمَّ يعود إِلَيْهَا، فَأذن لَهُ، وَأمر بِأَن تخلع عَلَيْهِ الْخلْع الْخَاصَّة، ويقاد إِلَيْهِ الحملان الْخَاص، وتعاد صلته بِالْمَالِ الْكثير، فامتثل ذَلِك، وأنشده أَبُو الطّيب الكافية الَّتِي هِيَ آخر شعره، وَفِي أضعافها كَلَامٍ جرى على لِسَانه، كَأَنَّهُ ينعي فِيهِ نَفسه، وَإِن لم يقْصد ذَلِك، فَمِنْهُ قَوْله:

فَلَو أَنِّي اسْتَطَعْتُ خفضتُ طرفِي

فَلم أبْصرْ بِهِ حَتَّى أراكا

وَهَذِه لَفْظَة يُتطيّر مِنْهَا، وَمِنْه:

إِذا التّوديع أعرض قَالَ قلبِي

عَلَيْك الصّمت لَا صاحبتُ فاكا

وَلَوْلَا أَنَّ أَكثر مَا تمنّى

معاودةٌ لَقلتُ وَلَا مناكا

أَي: لَو أَنّ أَكثر مَا تمنّى قلبِي أَن يعاودك لقله لَهُ: وَلَا بلغت أَنْت أَيْضًا منتك، وَهَذَا أَيْضا من ذَاك، وَمِنْه:

قد استشفيتَ من دَاءٍ بداءٍ

وأَقتَلُ مَا أعلَّك مَا شفاكا

أَي: قد أضمرت يَا قلب شوقًا إِلَى أهلك، وَكَانَ ذَلِك دَاء لَك، فاستشفيتَ مِنْهُ بِأَنْ فَارَقتَ عضد الدولة، ومفارقته دَاء لَك أَيْضًا أعظم من دَاء شوقك إِلَى أهلك، وَهَذَا شبه قَول النَّبِي -صلى الله عَلَيْهِ وَسلم-: "كفى بالسلامة دَاء"، وَقَول حميد بن ثَوْر:

وحسبك دَاءً أَنْ تصحَّ وتسلما

و"أقتل مَا أعلك مَا شفاكا"من أَلْفَاظ الطيرَة أَيْضًا، وَمِنْه:

وَكم دون الثويّة مِن حَزِينٍ

يَقُول لَهُ قدومي ذَا بذاكا

الثوية: من الْكُوفَة، يَقُول لَهُ "قدومي ذَا بِذَاكَ"أَي هَذَا الْقدوم بِتِلْكَ الْغَيْبَة، وَهَذَا السرُور بذلك الْحزن، لم يقل "إِن شَاءَ الله تَعَالَى"، وَمِنْه:

وَفِي الأحباب مُخْتَصٌّ بوجدٍ

وَآخر يَدِّعي مَعَه اشتراكا

إِذا اشتبهتْ دموعٌ فِي خدودٍ

تبيَّن مَن بَكَى مِمَّنْ تَباكى

وَهَذَا أَيْضاً من ذَاك، وَمِنْه:

فزلْ بعد عَن أَيدي ركابٍ

لَهَا وَقع الأسنِّة فِي حشاكا

هَذِه اسْتِعَارَة حَسَنَة؛ لِأَنَّهُ خَاطب الْبعد، وَجعل لَهُ حَشًا، وَمِنْه:

وأيًّا شِئْت يَا طرقي فكوني

أذاةً أَو نجاةً أَو هَلَاكا

جعل قافية الْبَيْت الْهَلَاك فَهَلَك، وَذَلِكَ أَنه ارتحل عَن شيراز بِحُسن حَالٍ، ووفور مَالٍ، فَلَمَّا فَارق أعمال فَارس حَسِبَ أَنّ السَّلامَة تستمر بِهِ كاستمرارها فِي مملكة عضد الدولة، وَلم يقبل مَا أُشير بِهِ عَلَيْهِ من الِاحْتِيَاط باستصحاب الخفراء والمبذرقين[84]، فَجرى مَا هُوَ مَشْهُور من خُرُوج سَرِيَّة من الْأَعْرَاب عَلَيْهِ ومحاربتهم إيَّاه، وَتكشف الْوَقْعَة عَن قَتله وَابْنه محسد وَنَفرٍ من غلمانه، وفاز الْأَعْرَاب بأمواله، وَذَلِك فِي سنة أَربع وَخمسين وثلاثمائة.



1. سداد الثغور: حمايتها وقوَّتها، وسداد الأمور: صوابها. ↑

2. منتضٍ: انتضى السيف، شهره واستلّه من الغمد. ↑

3. السماطين: الصفَّين. ↑

4. العُوذة: ما يعلّق على الصبي من التمائم ليقيه العين. ↑

5. تعلُّه: تمرضه، وتحلُّه: أي تستحلُّ سفكه. ↑

6. أتبطن: أعلو، والكاعب: الفتاة الناهد. ↑

7. أسبأ: أشتري، الزقّ: دنّ الخمر، الروي: المملوء، والإجفال: الانهزام في سرعة. ↑

8. البدرة: صرّة أو كيس توضع فيه الدراهم. ↑

9. الوصيفة: الجارية، والوصيف: الخادم. ↑

10. بررتنا: من البِرّ وهو المعروف والعطاء. والحوك: النسيج، تنيس: مدينة بمصر اشتهرت بالنسج. ↑

11. انجاب: انهزم وتراجع وانكشف. ↑

12. يغذ: يسرع. ↑

13. آب: رجع، وضامر: هزيل. ↑

14. المَلاب: كلّ عطرٍ مائع. ↑

15. الجرم: الذنب، وجارمه: مقترفه. ↑

16. الإرجاف: الخوض في الأخبار السيئة والفتن. ↑

17. الصبوح: الشرب صباحًا. سنة الغمض: أي الفتور الذي يلحق بالأجفان من النعاس. ↑

18. الجنوب: الريح تهبّ جنوبًا. ↑

19. الخود: النساء الناعمة. الغلائل: الثياب الرقيقة الناعمة. ↑

20. الجرع: شُرب الماء بسرعة. ↑

21. الأعلاق: جمع علق وهو من العقود. ↑

22. المصلّى: هو من فرسان السباق الذي يجيء بعد الفرس الأول، والأول يسمّى السابق. ↑

23. الأشهب: ما كان لونه الشهبة، وهي بياض غلب على السّواد. ↑

24. بالدهناء: صحراء من صحارى العرب، يريد أنّ صدره مثلها في الاتساع. ↑

25. العوالي: الرماح. ↑

26. المناقب: المآثر. ↑

27. نتج الربيع: خلّف، وألقحنها: أسقينها، والسحائب: الغيوم. ↑

28. العديل: الشبيه والموازن. ↑

29. يشرق: يغصُّ، والزلال: الماء العذب. ↑

30. النسم: السيف القاطع. ↑

31. تجاف: تصفح وتبتعد. ↑

32. تغضّ: تتجاهل وتتعامى، والبصيرة: المعرفة. ↑

33. أمرعهم جنابًا: أخصبهم محلًّا وأكثرهم نعمة. ↑

34. الحرائب: الأسلاب. ↑

35. ابالس: بلدة بشط الفرات. العوالي: الرماح واشتجارها: اختلاطها. ↑

36. الأسل: الرماح، يقصد أن السيوف قامت مقام الرماح في الحرب. ↑

37. أسونا: داوينا وخففنا آلام الجراح، والنوال: العطاء. ↑

38. غرار السيف: حدُّه. ↑

39. المُعار: الفرس المضمّر. ↑

40. جُبار: أي هدر دمه ولا ثائر له. ↑

41. تأوّب: رجع. ↑

42. الألوكة: الرسالة. ↑

43. تطيُّرًا: تشاؤمًا، والجوانح: جوانب الصدر وأضلاعه. ↑

44. كرّ ناظري: تطلّع، والعصائب: الجماعات. ↑

45. الألوكة: الرسالة. ↑

46. تطيُّرًا: تشاؤمًا، والجوانح: جوانب الصدر وأضلاعه. ↑

47. الخريدة: الفتاة البكر. ↑

48. نصب: أمام وهدف، والرمس: القبر. ↑

49. خفّض عليك: أي هوّن ولا تستصعب، والحشا: ما انضمّت عليه الضلوع. ↑

50. يديل: ينتقم لي بأن يجعل له الدولة عليهم. ↑

51. مضنّة: يقال للشيء النفيس الذي تضنُّ به النفوس: إنّه علق مضنّة. ↑

52. شرخ الشباب: ريعانه وحدّته ونشاطه. ↑

53. تنكّبني: تصيبني وتساعد عليّ، والنكب: المصائب. ↑

54. الحدِب: العطوف الشفوق. ↑

55. الغمر: القليل التجربة والجاهل. ↑

56. عنّت: أذعنت، وعفر البطاح: شجعانها ودهاتها. ↑

57. جذب ضبعه: كناية عن أنّه رفعه وأعلى قَدْره. ↑

58. رائشي نبله: كناية عمّن يقوى بهم ساعده. ↑

59. الرّخم: طائر من الجوارح يشبه النسر. ↑

60. ابن بجدتها: أي العالم بالشيء المتقن له. ↑

61. موضعُ في ديار بني يربوع يشتمل على قيعان ورياض. ↑

62. المحاق: وقت سرار القمر وخفائه. ↑

63. الرغام: التراب. ↑

64. النقع: الغبار. ↑

65. الظلمان: جمع ظليم، وهو ذكر النعام، والنون: الحوت والحادي من يسوق الإبل ويزجرها. ↑

66. الدشت: الصحراء لفظة فارسية، والأرزن: الشجر، والفيح: الواسعة، والغيل: أجمة الأسد. ↑

67. الخنانيص: أولاد الخنازير، والرئبال: الأسد. ↑

68. بل من دائه: شَفي ونجا من المرض. ↑

69. الرّيم: الظبي الخالص البياض، واللبّة: موضع القلادة. ↑

70. طاسمه: دارسه، وأشفاه: أحزنه، والساجم: المذروف من الدمع. ↑

71. الحكل: ما لا يسمع صوته كالذرّ، والحكلة: العجمة في الكلام، والزطّ: جيل من الهنود. ↑

72. الظاغنين: الراحلين، وشكول: متشابهة. ↑

73. القوابل: جمع قابلة، وهي التي تُشرف على الولادة. ↑

74. السّفاد: الجماع. ↑

75. الملمومة: الدرع. ↑

76. القسطل: الغبار. ↑

77. سئد: تسرّع السير في الليل خاصة، والني: الشحم، والمهمة: الأرض الواسعة البعيدة، والإنضاء: الإهزال. ↑

78. الثقلان: الجنّ والإنس. ↑

79. يريد أنّ صيغة "أفعل" في التفضيل والتعجب لا تبنى من الأفعال الدّالة على الألوان، وهذا رأي كثير من النحاة، ومنهم من أجاز البناء من البياض والسّواد بخصوصهما. ↑

80. فيه الفصل بين المضاف والمضاف إليه بمفعول المضاف، وهو جائز عند الكوفيين، وله شواهد. ↑

81. التوراب: لغة في التراب، والترباء: الأرض. ↑

82. الهون: الرفق والتأنّي، والدبيب: مشي النمل. ↑

83. المقانب: جمع مقنب وهي الجماعة من الناس، وأراد أنه لقي الأعداء بجيشٍ عظيم مغاردهم طعمةً للوحوش. ↑

84. بالمبذرقين: الحرّاس والخفراء. ↑

Table of Contents